# التسامح والتعايش مع الآخر في وثيقة مكة المكرمة
## دراسة تحليلية مقارنة

**د. محمد بن سالم حسين الشغيبي**

**قسم الدراسات الاسلامية – جامعة الملك خالد – المملكة العربية السعودية**

## المُلخَص

يسلط البحث الضوء على وثيقة مكة المكرمة الصادرة عام ١٤٤٠هـ-٢٠١٩م، وعلى ما تضمنته من أهمية مبادئ التسامح والتفاهم المتبادل بين الشعوب من مختلف الثقافات والأديان، والتعايش المشترك، والتي تتوافق مع المبادئ والأهداف المنصوص عليها في ميثاق المنظمات الدولية. امتازت الوثيقة في عرضها لقيم التسامح والتعايش مع الآخر أو العيش السلمي أنها انطلقت من المبادئ الإسلامية، وخاطبت العالم بلغة حضارية كونية. استمد واضعو الوثيقة المكية روح بنودها من دستور المدينة المنورة الذي وضعت بنوده في عهد النبي صلى الله عليه وسلم قبل ١٤ قرنا. تدور إشكالية البحث في مناقشة الفكر السائد في الغرب بأن الإسلام لا يمكن أن يتعايش مع غيره، ويعرض البحث تفنيد هذه الفكرة من خلال ما أبرزته الوثيقة المكية من أهمية قيم التسامح والتعايش في الإسلام، وكيفية تعزيزه في العالم عن طريق الحوار والتفاهم. وانتهج البحث في النقاش الأسلوب التحليلي والمقارن مع مفهوم ومبادئ التسامح والتعايش في اعتبارات الفكر العالمي، وما يشوب المجتمعات الغربية من ازدياد ظاهرة الإسلاموفوبيا، ومشكلة الاعتراف بالآخر.

**الكلمات المفتاحية:** وثيقة مكة المكرمة، التسامح، التعايش السلمي، الإسلاموفوبيا، الحوار.

# Values of Tolerance and Coexistence in Charter of Makkah (2019)

**Abstract**

The research highlights the significance of Makkah Al-Mukarramah Declaration /Charter of Makkah which was issued in 1440/2019 as well as the principles of tolerance, coexistence and mutual understanding between peoples of different cultures and religions. The Charter was distinguished in its presentation of the values of tolerance and coexistence or peaceful living because it was based on Islamic principles, and it addressed the world in a universal civilized language. The Makkan Charter derives the spirit of its provisions from the Medina constitution, whose provisions were laid down in the era of the Prophet, peace and blessings be upon him, 14 centuries ago. The problem of the research revolves around discussing the prevailing thought in the West that Islam cannot coexist with others, and a refutation of this idea through what the Makkan Charter highlighted regarding the importance of tolerance and peaceful coexistence in Islam, and how to promote them in the world through dialogue and mutual understanding. In the discussion, the research adopted the analytical and comparative method, with studying the concept and principles of tolerance and coexistence in the considerations of global thought. In addition, the paper addresses the increase in the phenomenon of Islamophobia in Western societies, and their problem of recognizing the other.

**Key words:** Makkah Al-Mukarramah Declaration, Tolerance, Peaceful Coexistence, Islamophobia, Dialogue.

## مُقَدِمَةُ :

يشهد العالم اليوم كثيراً من العنف والصراعات؛ بسبب الاختلافات العرقية والمذهبية والدينية، وكذلك تصاعداً في خطابات التطرف والكراهية، وفي ظاهرة الإسلاموفوبيا، هذا بالرغم من التقارب المستمر بين الشعوب والمجتمعات؛ بفضل التطورات التقنية متسارعة الخطى؛ ولهذا فهناك اجتهادات وآراء تُطرح من أجل إثراء الأفكار والمفاهيم الخاصة بالتسامح والتعايش بين الشعوب والأمم؛ من أجل تعميم مبدأ السلام في العالم الحديث. في هذا السياق تطرح وثيقة مكة المكرمة الصادرة في عام ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م والتي تمثل حدثاً تاريخياً فريداً، رؤيةً نحسبها شاملة لهذه المفاهيم الرائجة لدى المنظمات الدولية والمؤسسات التي جعلت الدفاع عن حقوق الإنسان، والتسامح والتعايش، واحترام الإنسان، شغلها الشاغل بغض النظر عن جنسه ولونه ودينه. إننا نجد في وثيقة مكة تأكيد الاهتمام بالمشتركات الإنسانية، والتعدد الثقافي والديني، ونجد مقابل تعاظم النزعات العنصرية والدعوات الضيقة اجتماعيا ودينيا، قيام الميثاق بدعوةٍ إلى التسامح، وإبراز مزايا العيش المشترك. وإذ تطرح هذه الدعوة ما هو مشترك بين الأديان والناس مبينة الحقائق الدينية وصادرة عنها، فإن هذا الاهتمام يُضارع ما يدور في الفكر على صعيد العالم المعاصر.

أسباب اختيار موضوع البحث:

١-إبراز جهود المملكة العربية السعودية في الدعوة لكل ما يلم شمل المسلمين ويطور علاقتهم بغيرهم، ويزيل عوائق الاجتماع والتفاهم، ويعزز قيم التسامح والتعايش، ويبث روح الوئام والسلام في العالم، ومن أحد أهم هذه الجهود صدور وثيقة مكة المكرمة.

٢-أهمية وثيقة مكة المكرمة؛ حيث تنوعت مضامينها وتعددت أبعادها، والتي تدشن عهداً جديداً من الفكر الإسلامي والتجديد الديني والتواصل الإنساني.

٣-حفلت الوثيقة بمفاهيم فكرية وعالمية، ومن ذلك ما أكدته من وجوب التسامح الاجتماعي وتفعيل التعايش السلمي، وهذا ما يبرز أهمية التفاعل الإيجابي للمسلمين مع واقع العالم اليوم.

**مشكلة البحث:**

تحاول هذه الورقة طرح إشكالية التعارض الموهوم الذي تروج له كثير من الأوساط الإعلامية والأكاديمية بين الإسلام والأعراف والمواثيق الدولية بخصوص قضايا التسامح والتعايش؛ إذ تقوم هذه الأوساط بالترويج لمقولةٍ مفادها: أن الإسلام ليس في مقدوره إقامة علاقات سوية مع سائر بني البشر من غير أتباعه، بل ليس ذلك من شأنه أصلا، وهو ما جعل من المسلمين كتلة بشرية معزولة عن باقي المجتمعات الإنسانية.

في مقابل هذا الزعم، يرى الباحث أن وثيقة مكة التي صاغها علماء المسلمين في مؤتمر الوسطية في مكة المكرمة شهر رمضان المبارك ١٤٤٠هـ-٢٠١٩م، هي واحدة من أكثر الوثائق صراحة ووضوحا بما تضمنته من إبراز قيم التعايش في الإسلام، وهي تجيب عن كثير من الأسئلة التي تطرح في هذا الشأن، بل تقدم رؤى أوسع وأشمل من شأنها تقوية الروابط بين البشر على أساس الاحترام المبني على وحدة الفطرة البشرية. فما مضمون هذه الوثيقة؟ وما الجديد الذي أضافته واقترحته بشأن المواثيق الدولية الداعمة لقيم التعارف والتعايش؟ هل كانت وثيقة مكة مجرد تابع مروج لما ورد في المواثيق الدولية، أم إنها وقفت منها موقفا تصحيحيا مستلهما قيم الفطرة البشرية بشكل أكثر صراحة؟ إلى أي مدى استطاعت تصحيح الرؤية المشوهة التي يُرَوَّجُ لها باستمرار إعلاميا وأكاديميا بشأن الإسلام ومفاهيمه حول التعايش؟

**أهداف البحث:**

يسعى هذا العمل إلى:

١- إبراز شمولية الإسلام ودعوته للتسامح والتعايش، من خلال الغوص في النصوص المؤسسة للوثيقة، التي تمنح الوثيقة مشروعيتها وأساسها المرجعي.

٢- معرفة مدى التوافق والانسجام وكذلك نقاط الاختلاف، بين مضامين الوثيقة ومضامين المواثيق الدولية والفكر العالمي فيما يخص التسامح والتعايش.

**منهجية البحث:**

يعتمد البحث على التحليل التاريخي؛ إذ تقتضي طبيعة الموضوع تناول دلالة المرجعية الإسلامية، وكذلك راهن الفكر الإنساني العالمي، فيما يخص الوثيقة المكية، وهو ما يجعل المسعى متجها إلى تحديد مسألة التسامح والتعايش الموضوعين الأكثر إلحاحاً في الفكر المعاصر، والمسؤولية المشتركة عن إرساء قِيمها في العالم. ونظرا للطابع الديني للوثيقة المكية يظل حضور التعايش والتلاقي بين أتباع الديانات أمورا تتطلب عرضا تاريخيا لتطور الأفكار والممارسة، وهو ما يمر حتما بمقارنة وضعيات وعصور مختلفة.

وسوف يعتمد البحث كذلك على التحليل النقدي لبعض الأفكار والرؤى التي تضمنتها بعض بنود المواثيق الدولية والفكر المعاصر، في قضايا تخص التسامح والعيش المشترك في المجتمعات البشرية.

**الدراسات السابقة:**

لا شك بأن موضوع التسامح والتعايش السلمي حظي بشكل عام بكثير من الدراسات والمناقشات وخاصة في الأدبيات العربية. ولقد صاحب ظهور الوثيقة المكية كثير من المقالات الصحفية والالكترونية والتقارير العامة والموجزة التي تتحدث عن مباديء الوثيقة وأهميتها في الوقت الراهن، ولم يكن هناك إلا بعض المقالات –

حسب اطلاع الباحث – ناقشت بشيء من التفصيل أغلب مواضيع الوثيقة وجمعت في كتيب بعنوان "قراءات في وثيقة مكة المكرمة" وخرجت فيما يقارب ٥٨ صفحة، وهي من منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو / ٢٠١٩). ومع أن هذه المقالات المتعددة كانت ذات طابع تعريفي ووصفي للوثيقة، وتناولت عدة جوانب من زوايا سياسية وقانونية ومجتمعية، فقد استفاد الباحث منها، وتعد من أهم ما كتب حول أبعاد الوثيقة. ولكن يبقى أن هذه المقالات الموجزة لم توفر عملية المقارنة التاريخية والموضوعية بين الوثيقة النبوية والمكية، وعرض المضامين المتعلقة بالتسامح والتعايش في وثيقة مكة المكرمة، وفي نصوص المواثيق الدولية والفلسفات المعاصرة، ومعرفة مدى التوافق والتباين بينها، ولم تقم بذلك أي دراسة مستقلة بعد، والله أعلم، وهذا ما سوف تتيحه هذه الدراسة.

تبويب البحث:

قُسِّمَ البحث إلى المحاور التالية:

- مقدمة وتشمل: أسباب اختيار موضوع البحث، ومشكلة البحث، وأهدافه، ومنهجيته، والدراسات السابقة، وتبويب البحث.
- تمهيد وفيه: وصف عام للوثيقة.
- المبحث الأول: الأصول الإسلامية لوثيقة مكة المكرمة.
- المبحث الثاني: التسامح والتعايش في مضامين وثيقة مكة المكرمة.
- المبحث الثالث: المفاهيم المتداولة في الفكر الإنساني.
- الخاتمة والتوصيات والمراجع.

**تمهيد**

قدمت المملكة العربية السعودية منذ تأسيسها على يد الملك عبد العزيز آل سعود طيب الله ثراه نموذجا حضاريا وسياسيا في الداخل والخارج مبنياً على التسامح والتعايش، واتخذت الوسطية والاعتدال شرعة ومنهاجا لها في كل أمورها وسياستها، حتى في النوازل ومختلف الظروف، ولا غَرو في ذلك؛ فدستور هذه الدولة المباركة هو القرآن الكريم والسنة النبوية.

وقد أسهمت المملكة عبر مؤسساتها المتنوعة ومن خلال إقامة المؤتمرات الإقليمية والدولية في تعزيز قيم التسامح والعيش المشترك، وشاركت من خلال ذلك في تأسيس خطاب إسلامي عالمي أساسه الاعتدال والاتزان في التعاطي مع القضايا الدولية والأزمات البشرية، وتبنت المملكة حوار الحضارات والثقافات وسياسة التفاهم والتعايش السلمي بديلا لسياسة الصراع والصدام، ودعمت أيضاً موقف الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٩٩م في تبنيها مبدأ حوار الحضارات، فَعُدَّ هذا رداً إسلامياً على موجة العداء والرفض التي خلفتها الدراسات الغربية عن الخوف من الإسلام والحرب القادمة منه.

وعلى الصعيد الوطني تُعَدُّ تجربة المملكة ومؤسساتها ومراكزها الوطنية ثرية ورائدة في مجالات التسامح والتعايش، فمركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني منذ تأسيسه عام ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م) يقوم بدور محوري في تعزيز ثقافة التسامح والتصدي لمحاولات الإقصاء والإكراه، والتشجيع على التعايش السلمي وتأصيل ذلك في ثقافة المجتمع. ومن أهم أنشطة المركز عقد الملتقيات والمنتديات وورش العمل، وإقامة الفعاليات والدورات التدريبية والدراسات والاستطلاعات، التي تسهم في تعزيز وترسيخ قيم التلاحم الوطني والتعايش المجتمعي، ونشر ثقافة الحوار والتسامح والوسطية والاعتدال. ومن أمثلة ذلك ما قام به المركز عام ٢٠١٧ من إنجاز أربعة بحوث ورسائل علمية عن ثقافة التسامح والتعايش، وعن الحوار من أجل السلام. وعقد كذلك في نفس العام عدداً من الفعاليات منها ملتقى التعايش، ولقاءات حوارية عن "القنوات الشعبية والتعايش المجتمعي"، وعن "ثقافة التسامح في مواقع التواصل الاجتماعي"، وقام أيضاً عن طريق (أكاديمية الحوار للتدريب) التابعة له بتنفيذ أكثر من ١٠٠ برنامج بهدف التدريب على تنمية مهارات الحوار والتعايش والتنوع في المجتمع.[١] وقد قام المركز أيضا بإنجاز أول مؤشر للتسامح من نوعه في منطقة الشرق الأوسط، يمكن من خلاله التعرف على واقع التسامح في المجتمع، وذلك عبر إجراء البحوث العلمية والدراسات الميدانية لبناء المؤشرات المجتمعية.[٢]

وفي عام ١٤٣٨هـ (٢٠١٧م) أُنْشِيء مركز اعتدال في الرياض؛ وذلك لنشر قيم التسامح والاعتدال، ومحاربة جذور التطرف والإرهاب.[٣]

وعلى الصعيد الدولي، قامت المملكة بإنشاء مركز الملك عبد الله للحوار بين أتباع الأديان والثقافات في النمسا، ويُعدُّ المركز أول منظمة دولية تعمل على تفعيل دور الأفراد والقيادات والمؤسسات الدينية لمساعدة صانعي السياسات في بناء السلام والتعايش السلمي وترسيخ قيم التسامح، تحت مظلة المواطنة المشتركة؛ سدّا للفجوة بين القيادات الدينية وصانعي السياسات خاصة في المنظمات الدولية.[٤]

---

(١) ينظر الموقع الإلكتروني: https://www.kacnd.org/ar/Details/index/-397

(٢) جاء مشروع مؤشر التسامح الذي أعدته إدارة الدراسات والبحوث بالمركز؛ اعتمادا على ما أجرته من بحوث علمية ودراسات ميدانية، وهو يهدف إلى: الوقوف على مستوى التسامح وتعزيز ونشر قيمه بين مواطني المملكة، مؤكدا أن المشروع يعكس بوضوح الاهتمام الذي توليه المملكة للقضايا التي تمس التسامح والإخاء والتعايش واحترام التنوع وقبول الآخر. منقول من موقع المركز: https://www.kacnd.org/ar/Archive/index/72

(٣) ينظر الموقع الإلكتروني للمركز: https://etidal.org/

(٤) ينظر الموقع الإلكتروني للمركز: https://www.kaiciid.org/ar

ومن جملة هذه المبادرات الرائدة والجهود الجليلة للمملكة بقيادة خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز آل سعود - أيده الله – في مجال التسامح والعيش المشترك: دعوتها علماء الأمة الإسلامية على هامش المؤتمر الدولي حول قيم الوسطية والاعتدال - الذي نظمته رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة شهر رمضان المبارك ١٤٤٠هـ-٢٠١٩م - إلى إبرام وثيقة كريمة؛ تكون منارة هدى لإبراز معالم الإسلام العظيمة ورؤية الشريعة في تدعيم قوى السلام والحوار، وصون كرامة الإنسان، وتعزيز التصالح والتسامح بين الشعوب والأمم؛ لتعيش بسلام ووئام. وعلى أن تؤكد هذه الوثيقة أن المسلمين جزء مهم في هذا العالم يتناغم ويتفاعل مع كل مكوناته وتطوراته الحضارية والإنسانية؛ تحقيقا لما هو في صالح البشرية.

وقد حضر ما يقارب (١٢٠٠) عالم دين مسلم في مكة المكرمة وهم من (١٣٩) دولة، وقاموا بتدوين بنود هذه الوثيقة والتي سميت بـ "وثيقة مكة المكرمة" في العشر الأواخر من رمضان المبارك في سنة ١٤٤٠ للهجرة، وقد اشتملت على ٢٩ بنداً وردت في ٧ صفحات[٥]. وقد صدرت هذه الوثيقة في ظل وجود خلل في ضبط الأمن في بعض بلدان العالم، وتكاثر النزاعات والصدامات العرقية والعنصرية، وتغول التطرف والإرهاب والإسلاموفوبيا[٦]، وتنمر الدعوات الإلحادية على الأديان ومبادئها، وتدهور البيئة وتعطل برامج التنمية المستدامة.
جاءت وثيقة مكة مؤكدة -عبر بنودها- دور الأديان وخاصة الدين الإسلامي في محاربة هذه الآفات والمخاطر الفكرية والثقافية والاقتصادية التي تهدد البشرية جمعاء، من خلال إرساء قيم العدالة والأمن والحوار ومبادئ الأخلاق وتمكين المرأة وحماية التنوع الثقافي والديني والعرقي، وفي الحفاظ على البيئة ومصادرها. فكانت هذه الوثيقة سواء في توقيتها أو بنودها أو عبر موقعيها من العلماء والمفكرين المسلمين وثيقة تاريخية انبثقت في ظرف حساس ووقت حرج، تبشر فيه عن أهمية دور العرب والمسلمين – وهم يتكئون على إرث حضاري وإرث ديني عظيمين- في الريادة والتواصل الحضاري والإنساني الذي لا يمكن الاستغناء عنه في الوقت الراهن في ظل انفتاح العالم وتقاربه.
وبناء على أساس مرجعيتها الدينية، فقد بينت الوثيقة كمال الإسلام وشموليته وعالميته من خلال ما أعلنته من مبادئ وتوجيهات، وذلك كله بعبارات صيغت بدقة وإيجاز بليغين، وزخرت بعدد من الآيات والأحاديث النبوية الشريفة. وقد انطلقت في خطابها من الداخل إلى الخارج، أو من المراجعة الداخلية والنقد الذاتي إلى مخاطبة العالم وأديانه، بمفرداتٍ مدنية حضارية تتناسب مع تطور المجتمع الدولي ومقتضيات العصر؛ استناداً على المشتركات والقيم الإنسانية.

## المبحث الأول

الأصول الإسلامية لوثيقة مكة المكرمة

لا شك في أن مبادئ وثيقة مكة المكرمة انطلقت من مبادئ الإسلام الكبرى في العلاقات الإنسانية والحقوق العامة، كالسلم الدولي والحوار والتقارب الإنساني، والمرأة والأقليات والاهتمام بالبيئة، الأمر الذي لا يتعارض مع كليات الشريعة الإسلامية. فقد تمت هذه الوثيقة وفق رؤية إجماعية شملت بلاد العالم الإسلامي كافةً؛ إذ "إنه لا يُبْرِمُ شأنَ الأمة الإسلامية، ويتحدَّثُ باسمها في أمرها الدينيّ، وكل ذي صلة به إلا علماؤها الراسخون في جمعٍ كجمع مؤتمر هذه الوثيقة، وما امتازت به من بركة رحاب قبلتهم الجامعة، فالعمل الديني والإنساني المشترك الهادف لمصلحة الجميع يلزم تشارك الجميع دون إقصاء أو عنصرية أو تمييز لأتباع دين أو عرق أو لون"[٧]. ومن خلال هذه الرؤية قاربت وثيقة مكة المشاكل الملحة التي تطرح أمام المسلمين، واستبدلت بمفاهيم الصراع وعقلية المؤامرة، فكرًا منفتحًا على العالم والديانات، محتجة بمواقف تأصيلية من الهدي القرآني والهدي النبوي، كما سيتبين في المطلبين التاليين:

### المطلب الأول: الهدي القرآني.

يعدُّ القرآن الكريم مصدراً للحكمة ومنبعاً للهداية، فخطابه عالمي وشمولي، يتناول الجنس البشري كله بغض النظر عن تحول الزمان والمكان. وقد ارتكزت عليه الوثيقة في بيان مفاهيم تتعلق بالتسامح والتعايش، مثل: تساوي البشر في الإنسانية، وتقدير التنوع والاختلاف بينهم، وضبط معيارية التفاضل بين الناس، ونبذ التعصب والكراهية، حسب القواعد التالية:
أولاً: البشر على اختلاف مكوناتهم ينتمون إلى أصل واحد، وهم متساوون في إنسانيتهم، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: ١] ويشملهم جميعا التكريم الإلهي، قال الله تعالى: ﴿۞وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠]".
ثانياً: رفض العبارات والشعارات العنصرية، والتنديد بدعاوى الاستعلاء البغيضة التي تزيّنها أوهام التفضيل المصطنعة، فأكرم الناس أتقاهم لله، يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ

(٥) ينظر كامل الوثيقة وبنودها ملحقة في نهاية البحث.
(٦) سيأتي التعريف بمصطلح الإسلاموفوبيا في المبحث الثالث.
(٧) وثيقة مكة المكرمة، بند ٢٩.

أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣] كما أن خيارهم أنفعهم للناس، وفي الحديث الشريف "خير الناس أنفعهم للناس"[٨].

ثالثاً: الاختلاف بين الأمم في معتقداتهم وثقافاتهم وطبائعهم وطرائق تفكيرهم قَدَرٌ إلهي قضت به حكمة الله البالغة، والإقرار بهذه السُّنَّة الكونية والتعامل معها بمنطق العقل والحكمة بما يوصل إلى الوئام والسلام الإنساني خير من مكابرتها ومصادمتها، قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ﴿١١٨﴾﴾ [هود: ١١٨]، وعلى كل من هُدي للحق بيانه للناس.

وفق هذا المنحى قدمت الوثيقة رؤية متكاملة عن نمطٍ من فقه الواقع الذي سعت به إلى تجديد الفهم الوسطي للدين والواقع، ذلك أن الحالة الأصلية هي مذهب التعايش مع الغير، أي مذهب السلم؛ فقد ورد في القرآن حسب بعض المفسرين مائة و أربعًا وعشرين آية دعت إليه بصفة مباشرة[٩].

وإذا كانت الوثيقة نتاجاً لمؤتمر الوسطية المنعقد بمكة المكرمة فإن الوسطية صفة أصيلة للدين الإسلامي وشريعته الغراء، تأصلت معالمه من القرآن الكريم، يقول الله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧]، ويقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وهي البنية الأساسية للإسلام في العلاقات والعبادات، ولمنطلقاته ومبادئه الكبرى في التعامل مع العالم. وعلى ذلك انبنى الفكر الإسلامي الذي يرى في الوسطية والاعتدال البعد الحقيقي لتميز الإسلام وسماحته. ومن خلال مفهوم الوسطية تتعزز لدى المسلمين قيم نبيلة كالتسامح والتعايش والحوار ونبذ التطرف والعنف.

فالوثيقة إذن تتويج لفكر وسطي ما فتئ يعتمل في البلاد الإسلامية، يغذيه الحوار الحق بين المسلمين فكان فكرا يجمع ولا يفرق، فكرًا يبحث فيما يتفق عليه الأتباع، ويترك الآراء والمقالات النشاز والمتطرفة. ثم إنه موجه إلى الآخر أو إلى صورتنا لدى الآخر، الذي يحمل أحكاما مسبقة عن الإسلام، ترسخت عبر الزمن، وطبعتها تصرفات بعض الأتباع التي يحكمها الجهل بالمعاني الكلية للدين. وعليه فإن "تصحيح المفاهيم وتحديد الرؤى وتصميم المسارات بروح الوسطية والاعتدال والعدل والعدالة يجعل الوثيقة تاريخية بكل المقاييس"[١٠].

**المطلب الثاني، الهدي النبوي:**

تبين وثيقة مكة المكرمة في ديباجتها بأن من أهم المصادر الإسلامية التي استلهمت منه أسسها ومبادئها: ما يُعرف بـ"وثيقة المدينة المنورة التي عقدها النبي ﷺ قبل أربعة عشر قرناً مع المكونات المختلفة في أديانها وثقافاتها وأعراقها في مدينته المنورة، فكانت وثيقة تُحتذى في إرساء قيم التعايش، وتحقيق السلم بين مكونات المجتمع الإنساني. ووثيقة مكة المكرمة هي هدى إسلامي تستمد ضياءها من معالم تلكم الوثيقة الخالدة، تصدر عن كبار علماء الأمة الإسلامية من قبلتهم الجامعة إلى عالم القرن الخامس عشر الهجري، القرن الحادي والعشرين الميلادي"[١١].

وقد ورد ذكر وثيقة المدينة في عدة مصادر تاريخية وكان أول من أوردها بتمامها: إمام أهل المغازي والسير محمد بن إسحاق (ت. ١٥٠هـ)، ونقلها عنه ابن هشام (ت. ٢١٨هـ) في سيرته، وقد أطلقا عليها اسم صحيفة أو كتاب[١٢]، وباتت تعرف باسم الوثيقة النبوية أو الدستور في الدراسات التاريخية الحديثة؛ لأنها قامت بحفظ تنوع الدولة الإسلامية وتعايشها في سلام وانتظام.

من الصعب أن نراهن على انتقال سلس بين الوثيقتين: وثيقة المدينة ووثيقة مكة، إلا أنه وبرغم البعد الزمني وما دهى العالم الإسلامي من خطوب وعاديات، تجمعهما أمور: فكل منهما كان سعيا أو توقا لمستقبل ما، فوثيقة المدينة مالت إلى الموادعة والتخالف تجسيدا للعيش المشترك "وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة"[١٣]، وفضلا عن قيمتها التشريعية فهي اتفاق بين جماعات صغيرة، تسعى لحماية حيز جغرافي محدود، بشكل يسمح للدولة أن تنهض. وإن الإرادة والحكم الفعلي في المجتمع أي ما يسمى "السلطة" كانت بيد الرسول الكريم ﷺ وقد أمر الله المسلمين في عدد غير قليل من الآيات بطاعة الله ورسوله ﷺ[١٤]، وقد نصت الوثيقة على ذلك: " وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مردَّه إلى الله -عز وجل، وإلى محمد رسول الله- ﷺ"[١٥].

---

(٨) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، تحقيق طارق عوض الله وعبد المحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة (رقم الحديث:٥٧٨٧، ٦/٥٨)، وهو حديث حسن (ينظر: بداية السول في تفضيل الرسول صلى الله عليه وسلم للعز عبد العزيز بن عبد السلام السلمي، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠١، ص ٤٤، هامش رقم ١٩)

(٩) عبد العظيم إبراهيم المطعني، مبادئ التعايش السلمي في الإسلام (دار الفتح للإعلام العربي، القاهرة ١٩٩٦م)، ص٣٩.

(١٠) أحمد سعيد أباه، "وثيقة مكة المكرمة مضامين متعددة الأبعاد"، في قراءات في وثيقة مكة المكرمة (منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة "إيسيسكو"، ٢٠١٩م )، ص ٣٧.

(١١) ينظر وثيقة مكة المكرمة، الديباجة.

(١٢) ابن هشام، السيرة النبوية (دار إحياء التراث العربي، بيروت: ٢٠٠٩م)، ١٤٧/٢.

(١٣) محمد حميد الله، مجموعة الوثائق في العهد النبوي والخلافة الراشدة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٤١م)، ص٦٢، بند رقم ٣٩.

(١٤) المرجع السابق، ص٦١، بند رقم ٢٣، وينظر أيضاً: صالح أحمد العلي، الدولة في عهد الرسول (مطبعة المجمع العلمي: بغداد، ١٩٨٨م) ص١٢.

(١٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ٤٠٥/١.

وإذا استخدمنا لغة معاصرة فإن وثيقة المدينة مع طابعها الديني الجلي، فإنها وضعت أسس العلاقة مع الآخر، ونظمتها في جو لم يعهده سكان المدينة، الذين عاشوا الدسائس والمؤامرات والحروب لفترة طويلة "فمثلت السياسة الداخلية للدولة الإسلامية مع الآخر -اليهودي، والوثني وهو ما يسمى في العصر الحديث بالقانون الدولي الخاص، ومثلت كذلك نظاما متكاملا للعلاقات الخارجية مع القبائل والشعوب والدول وهو ما اصطلح عليه فيما بعد بالقانون الدولي العام"[١٦].

ومن دون شك فإن تركيز الوثيقة على قيم أخلاقية معينة أسهم في تغير اجتماعي حلت فيه اهتمامات جديدة لدى المتحالفين؛ إذ ربطت بين العوامل الاقتصادية من قبيل الديات، وبين تأمين الجماعة ومن استجار بها، من دون تفريق.

وسنحاول التعرف على بعض بنود عهد الرسول ﷺ مع قبائل اليهود، التي كانت تُساكنه المدينة في أعقاب هجرته الشريفة.. فقد كان مما نصَّت عليه[١٧]:

- إن يهود بني عوف أُمَّة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم.
- وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.
- وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.
- وإن بينهم النُّصح والنصيحة، والبرَّ دون الإثم.
- وإنه لا يأثم امرؤٌ بحليفه.
- وإن النصر للمظلوم.
- وإن اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.
- وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.
- وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مردَّه إلى الله -عز وجل، وإلى محمد رسول الله-ﷺ.
- وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم[١٨].

وفي مجمل الأمر نجد أن الوثيقة النبوية تؤكد الصلات المباشرة بين مكونات مجتمع المدينة، وتركز على العدل والمساواة والتنظيم القضائي المُؤمِّن للعيش المشترك والسلم المجتمعي، وعدّت ذلك أولوية مطلقة يجب تحققها، ولا شك في أن هذا راجع إلى إدراك الرسول ﷺ لأهمية هذه الأسس لكل مجتمع سليم، وأن غيابها كان أقوى أسباب القلق والاضطراب قبل الإسلام[١٩].

أما ميثاق مكة فقد جاء في وقت تعالت فيه أصوات المكتوين بنار الحقد والكراهية والإرهاب؛ معبرة عن اليأس والألم الشديدين، فأثارت لدي أصحاب السمو والفضيلة دعوة لما حملته بنود الميثاق من دعوة للتسامح والتعايش والإخاء.

لقد صاحب وثيقة مكة مبررات تسويغية أخذت مكانها في الديباجة التي ركزت على أهمية المكان والزمان (إذ المكان مكة والزمان العشر الأواخر)، وهي هدي إسلامي يستمد قوته من وثيقة المدينة، مستعينا ببصيرة كبار العلماء في الأمة الإسلامية ونظرهم. وتعلن وثيقة مكة أهدافها المحددة:

- المسلمون جزء من هذا العالم ويرغبون في التواصل معه.
- مد جسور المحبة والإخاء الإنساني.
- التصدي لممارسات الظلم والصدام الحضاري وسلبيات الكراهية[٢٠].

ويمكن وصف الوثيقة بأنها مذكرة تفاهم لا بالمعنى الضيق لمذكرات التفاهم التي توقع بين جهتين، إنما بمعنى أشمل وأعمق هي مذكرة تفاهم بالمعنى الإنساني والحضاري، مذكرةٌ للمسلمين والبشرية؛ لاضطلاعها بمسؤولية التذكير التي هي مسؤولية الأنبياء وورثتهم من العلماء[٢١].كما أن وثيقة المدينة كُتبت بإملاء من الرسول الكريم ﷺ في العام الأول من هجرته إلى المدينة تشكل العقد الاجتماعي الأول في تاريخ البشرية، والذي يعتبر أهم المرتكزات للمواطنة في دولة المدينة والتي حمت السلم الأهلي[٢٢].

وإذا كنا قد قارنا بين الوثيقتين موضحين الفارق التاريخي واختلاف الشروط المنتجة لكل منهما، فإننا نظهر على صعيد آخر أن مجال التسامح والعيش المشترك بين أتباع الديانات كان مسعى مشتركا لكل منهما.

## المبحث الثاني

### التسامح والتعايش في مضامين وثيقة مكة المكرمة

أكدت وثيقة مكة أن "قيم التسامح والتعايش بسلام ووئام يتفهم وجود الآخر، ويحفظ كرامته وحقوقه..."[٢٣]، فبالتسامح تعرف المجتمعاتُ الإنسانية طريق التنمية والنهضة، والرخاء والاطمئنان، ويحفظ للفرد حقوقه ويوطد علاقته بالآخرين، وبدونه يولد النقيض دائما. فرواسب التعصب والعنف، وعدم التسامح تظهر

(١٦) خالد سليمان الفهداوي، الفقه السياسي للوثائق النبوية (الطبعة الأولى، دار عمار، عمان ١٩٩٨م)، ص ٣٦.

(١٧) لكامل بنود الوثيقة النبوية ينظر: حميد الله، مجموعة الوثائق في العهد النبوي والخلافة الراشدة، ص ٥٧-٦٤. وقد بيَّن المؤلف الفروق في رواياتها.

(١٨) ابن هشام، السيرة النبوية،١/٥٠٣ -٥٠٤.

(١٩) أحمد قائد الشعبي، وثيقة المدينة: المضمون والدلالة (سلسلة كتاب الأمة تصدرها وزارة الأوقاف القطرية، العدد ١١٠، السنة ٢٥، ٢٠٠٦م)، ص ٥٦.

(٢٠) عبد الإله بن عرفة، "وثيقة مكة المكرمة: رؤية جديدة من الهدي الإسلامي"، قراءات في وثيقة مكة المكرمة، ص ١٤.

(٢١) ينظر: عادل بوراوي، "نظرات تربوية في وثيقة مكة"، قراءات في وثيقة مكة المكرمة، ص ٢١.

(٢٢)ينظر:الشعبي، وثيقة المدينة، ص ٢٩.

(٢٣) الوثيقة، البند ٢٧.

في التاريخ البشري عموما؛ حيث توضح بشكل لا يقبل الجدل والتبرير مدى علاقة الإنسان بالآخر، حين يكون منطلق الأنا فيها عدم التكافؤ بين الذات والآخر، بل الإقصاء والتهميش والعنف، وقد تتخذ هذه العلاقة بين الطرفين شكلا متطرفا يظهر في تدمير الإنسان والعمران. وتبعا لما يسمى بموجات الحضارة عند توفلر (ت. ٢٠١٦)[٢٤] تتحكم بالفرد في الموجة الثانية الشوفينية[٢٥] الدينية أو القومية[٢٦]؛ مما يسهم في إبعاد الآخر وإقصائه[٢٧]. ولاستجلاء متعلقات التسامح والتعايش الإنساني في الوثيقة يجب توضيح المضامين العامة التي اشتملت عليها الوثيقة المبنية على الرؤية الإسلامية. وبالنظر إلى بنود الوثيقة نجد أن أهم المضامين المتعلقة بأبعاد قيم التسامح والتعايش مضمونان اثنان: الأخلاقي والاجتماعي كما سيتضح في المطلبين الآتيين.

**المطلب الأول، المضمون الأخلاقي:**

أسس الإسلام من خلال مبادئه وتشريعاته منظومة متكاملة ومتماسكة من القواعد والقيم والآداب؛ وذلك من أجل ضبط سلوك وتوجهات الأفراد والجماعات، وتنظيم العلاقة بينهم وبين خالقهم، وبينهم وبين الآخرين. ومن خلال هذه القيم والآداب تشكلت المنظومة الأخلاقية الإسلامية، التي ترتكز على القيم المشتركة، وهي قيم عالمية تأسست على الفطرة ﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الروم: ٣٠] والتي لا تلتفت إلى جنس ولا عرق ولا مذهب، وهي صالحة دوماً للتطبيق في كل زمان ومكان.

وركيزة القيم الإنسانية المشتركة التي تضمنتها المنظومة الأخلاقية في الإسلام موجودة في المدح القرآني للنبي ﷺ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، فكان النبي ﷺ عنواناً للكمال الإنساني، والجمال الظاهري والباطني، والمادي والمعنوي. وارتكزت هذه القيم المشتركة أيضاً على قول النبي ﷺ "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[٢٨]، فهو ﷺ أُرسل للناس لإكمال ما انتقص من الأخلاق الحسنة والأفعال المستحبة التي جُبل عليها البشر. وهذه الأخلاق الإسلامية المعبرة في جوهرها عن الفطرة الإلهية لدى سائر البشر هي أخلاق إنسانية عامة يلتقي عندها كل البشر؛ ومن هنا جاءت الوثيقة سيرا منها على الهدي النبوي؛ لاستثارة القيم الأخلاقية المشتركة كالاحترام، والصدق، والصبر، والمروءة، والعدل، والأمانة، والوفاء، وكلها تصب في التسامح والاحترام والسلام، وتوفير الجو ليعيش الإنسان بأمان.

ويعدُّ التسامح من أهم مفردات المنظومة الأخلاقية الإسلامية، وإن لم توجد مفردة التسامح في المعاجم العربية القديمة ولا في كتب التراث بمفهومها الفلسفي والاجتماعي المعاصر، ولكن لها دلالات وسياقات لغوية وشرعية تتقارب فيها مع الدلالات الحديثة التي يحيل إليها المصطلح في الوقت الراهن[٢٩]، وتنسجم معه أسس الوثيقة.

فكلمة التسامح مشتقة من مادة (س-م-ح) وجاء في لسان العرب لابن منظور (ت. ٦٣٠هـ) في مادة سمح: السماح والسماحة: الجود، وتأتي بعدة معان منها: المساهلة، والليونة، والموافقة على المطلوب[٣٠]. وقد عرف الشريف الجرجاني (ت. ٨١٦ هـ) السماحة بـ "بذلِ ما لا يجبُ تفضلاً"[٣١].

بينما نجد هناك تنوعاً في أعمال العلماء والمفكرين والفقهاء المعاصرين عند تحديد مفهوم "التسامح" اصطلاحاً، وذلك عائد إلى الزاوية التي يُنظَر إليه منها. ومن ضمن هذه التحديدات:

١- سهولة المعاملة في اعتدال، فهو وسط بين التضييق والتساهل، فهو راجع إلى معنى الاعتدال والعدل والتوسط - أو هو عبارة عن السهولة المحمودة فيما يظن الناس التشديد فيه ومعنى كونها محمودة أنها لا تفضي- إلى ضرر أو إفساد[٣٢].

٢- التعامل مع غير المسلم وفق الحكمة واللين والمعروف، سواء في ذلك التعامل في الخطاب أو في مطلق التصرف[٣٣].

٣- التسامح مع الغير في المعاملات المختلفة، ويكون ذلك بتيسير الأمور والملاينة فيها التي تتجلى في التيسير وعدم

---

(٢٤) آلفين توفلر (بالإنجليزية: Alvin Toffler) كاتب ومفكر أمريكي وعالم في مجال المستقبليات، تُرجِمَتْ كتبه إلى عدة لغات عالمية. ينظر الموقع الخاص به: https://tofflerassociates.com/about/the-toffler-legacy/.

(٢٥) الشوفينية (Chauvinism) مصطلح يطلق في الأصل على التعصب للوطن والنعرات الوطنية ثم أصبح يطلق على التعصب والتطرف الفكري والديني والإيديولوجي والنعرات الكاذبة والتي تولّد عنجهيةً في التعامل مع المخالف. ينظر: أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٢، ١/ ٥٧.

(٢٦) القومية فكرة وضعية نشأت أول ما نشأت في البلاد الأوروبية شأن غيرها من الحركات والأفكار التي تبحث عن التفلت من رابطة الدين ويلاحظ أن دعاتها قد اختلفوا في المفهوم الصحيح لها هل هي بمعنى تجمّع أمة من الناس وارتباط بعضهم ببعض هدفا وسلوكا وغاية. إما لانتمائهم إلى لغة واحدة –كما يرى القوميون الألمان –لانضوائهم في عيشة مشتركة –كما يرى القوميون الفرنسيون –أو أنها لكليهما. للمزيد ينظر: صالح العبود، فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام (دار طيبة للنشر، مكة المكرمة، ١٩٨٢).

(٢٧) Alvin and Heidi Toffler, War and Anti-War: Survival at the Dawn of the 21st Century (Little Brown & Co, New York, 1993), p 219.

(٢٨) الحديث رواه البخاري في " الأدب المفرد " رقم (٢٧٣)، وحسنه الألباني في "سلسلة الأحاديث الصحيحة"، ١/ ٧٨٩.

(٢٩)ينظر:حسني إبراهيم، "التسامح: الدلالات اللّغوية والجذور التاريخيّة والمضامين المعاصرة"، https://mana.net/7392 (٢٠٢٠/٦/٢).

(٣٠) جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب (دار صادر، بيروت، ١٩٩٠م)، م ١/ مادة "سمح".

(٣١) علي بن محمد الجرجاني، التعريفات (دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٣م)، ص ١٢١.

(٣٢)ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية (وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ٢٠٠٤م)، ص ١٨٨.

(٣٣)ينظر:بلال صفي الدين، "مفهوم التسامح في الإسلام وصلته بمفهوم الواجب"، مؤتمر التسامح الإسلامي في الشريعة الإسلامية، ٢٠٠٩م، دمشق، ص ١٣.

القهر، وسماحة المسلمين التي تبدو في تعاملاتهم المختلفة سواء مع بعضهم أو مع غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى[٣٤].

٤- "التسامح خلُق قوامه التساهل واللين واليسر- والجود والكرم"[٣٥].

ويلاحظ أن التحديدات السابقة أخذت بالفهم اللغوي للفظة التسامح أو السماحة، وخصصته للمسلك التعاملي، وتحديد علاقة المسلم بالآخر؛ لأن مقصود التسامح في الوقت الراهن ينصرف غالباً إلى التسامح الديني مع الغير، الذي يتسع للفكر و الرأي و المشاعر والتعايش، وما يترتب على هذه الأمور من علاقات إيجابية وفاعلة[٣٦].

والمنظور الشامل للتسامح يُذهب فيه إلى أن البشرية جمعاء في حاجة لتأكيد منظومة القيم الإنسانية، والإيمان بالتنوع الحضاري والثقافي وأن هذا من صميم رسالة الأديان جميعا؛ حتى لا يُستغل الدين لمصالح غير شرعية أو أطماع اقتصادية؛ فيحدث القتل والتدمير والتخريب باسم الدين، ومن القيم التي أجمعت عليها الشرائع السماوية كلها: العدل والتسامح والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، والصدق في الأقوال والأفعال؛ لأن مصدر التشريع السماوي واحد[٣٧]. وقد أكدت الوثيقة المكية أن " أصل الأديان واحد، وهو الإيمان بالله سبحانه إيماناً يوحده جل وعلا لا شريك له، وشرائعها ومناهجها متعددة..."[٣٨].

وبما أن القرآن الكريم والسنة النبوية هما مصدرا الإسلام الأساسيان، فلا بد من أن نعرج على موضوع التسامح فيهما. فالتسامح قيمة شرعية وهو من صفات الشريعة وأعلى مقاصدها، ونجد ما ينهض بدلالاته المتنوعة في هذين المصدرين "مُوزّعًا بين عبارات ومصطلحات أخرى، مثل: الوفاق، المسامحة، التسالم، العدل، التفهّم، التحابّ. وهي تمثّل الجهاز الاصطلاحي الذي اعتمدته الخطابات الاجتماعيّة والفلسفيّة الرامية إلى تشريع الاختلاف والتأليف بين المجموعات البشريّة في الحضارة الإسلامية"[٣٩].

ومن دلالات التسامح في القرآن الكريم:

١- البِرّ الذي يدل على الإحسان والعطاء والصلة والخير: يقول الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة: ٨]. وفيه جواز البر بالمشركين من حيث الوفاء بالعهد والعدل، يقول مقاتل (ت. ١٥٠هـ) في تفسير ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾: "أن تصلوهم وتقسطوا إليهم بالعدل: يعني توفوا إليهم بعهدهم، إن الله يحب المقسطين"[٤٠].

٢- العفو والصفح: يقول تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ [النور: ٢٢]. والعفو هو التجاوز عن الذنب وترك العقاب، والصفح أبلغ من العفو حيث هو ترك تثريب المذنب[٤١]. والعفو والصفح من أعظم أخلاق التسامح، ويزرع الرحمة والمودة بين المتخالفين.

٣- الوسطية: وهي إحدى خصائص الإسلام العامة، والمعالم التي ميز الله بها أمة محمد ﷺ عن غيرها، يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقد حذر الإسلام من الغلو والتطرف والتشدد والتنطع؛ لأنها ضد وسطية الإسلام واعتداله، والوسطية تكون في كل الأمور وخاصة في المعاملة والسلوك. وتحفل النصوص الشرعية بالأمر بالتيسير والرفق والتسامح، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله ﷺ "يسروا ولا تعسروا، بشروا ولا تنفروا"[٤٢].

٤- المغفرة: وهي في الدلالة القرآنية تشمل المسامحة في كل الأخطاء الصادرة عن الغير، ويدلّ على ذلك قوله سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقوله سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، واختار الطبري (ت. ٣١٠هـ) أن تكون الآية عامة في أهل الإيمان وأهل الشرك؛ لأن الله عز وجل عمّ المسرفين ولم يخصص به

(٣٤)ينظر:صالح بن عبد الله بن حميد، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، ط ٤، ١٤٣٠هـ)، ٢٢٨٧/٦.

(٣٥) موسوعة التعايش والتعارف في الإسلام: مفاهيم ميسرة، من إصدار منظمة التعاون الإسلامي، ٢٠٢٢م، ص ٨١.

(٣٦) عبد الواسع محمد غالب الغشيبي وأمير فاضل سعد، "التسامح الإسلامي: قراءة في معطياته الفكرية وآثاره الواقعية"، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد ٢١ فبراير ٢٠١٣م، ص١٨.

(٣٧) محمد مختار مبروك، التعايش السلمي وفقه العيش المشترك (مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، ٢٠١٤م)، ص٤.

(٣٨) وثيقة مكة، البند: ٢.

(٣٩) حسني إبراهيم، "التسامح: الدلالات اللّغوية والجذور التاريخيّة والمضامين المعاصرة"، https://mana.net/7392 (٢٠٢٠/٦/٢).

(٤٠) تفسير أبي الحسن مقاتل بن سليمان الأزدي، تحقيق: أحمد فريد المزيدي (دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م)، ٣٠٢/٤.

(٤١) تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٥، الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (دار المعرفة، بيروت، د.ت)، ص ٢٨٢.

(٤٢)حديث صحيح، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم "يسروا ولا تعسروا" (دار طوق النجاة، بيروت، ١٤٢٢هـ، ط ١)، ٨/ ٣٠.

أحدًا، فالشرك أعظم الذنوب وهو مغفور مع التوبة منه والرجوع عنه[٤٣].

٥- الصبر: وهو كما عرفه ابن القيم (ت. ٧٥١هـ) "حبس النفس عن الجزع والتسخُّط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش"[٤٤]، وجاء بيان معناه في القرآن الكريم أكثر من مائة مرة بصيغ مختلفة، منها قوله تعالىٰ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. والصبر على الأذى والأذية تسامحا وعفوا ينطلق مرتكزه من دعوة قلبية تزيل الضغائن وتفتح القلب لقبول التعامل من جديد.

أما دلالات التسامح في السنة النبوية فهي كثيرة، وجاءت لفظة التَّسَامح في السنَّة النبوية بمادّتها الأصلية، وبمعناها اللغوي وبما يدل عليه الاستعمال القرآني، ومن ذلك:

١- السماحة: ورد في صحيح البخاري حديث "رحم الله عبدا سمحا إذا باع، سمحا إذا شرى، سمحاً إذا اقتضى"[٤٥] أي سهلا وجوادا، يتجاوز عن بعض حقّه...إذا طلب دينا له على غريم يطلبه بالرفق واللطف لا بالخرق والعنف[٤٦].

٢- السهولة واللينونة: والمقصود بذلك هو اللين في التعامل والرفق بالآخرين، ومن أميز صفات التسامح: التساهل في المعاملة مع الغير. ويعرف التسامح بالسهولة، قال ابن حجر (ت ٨٥٢هـ)[٤٧]: "السهولة والسَّماحة متقاربان في المعنى"[٤٨]، وجاء في الحديث النبوي: "ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: "كل هيّن ليّن قريب سهل"[٤٩]. والتسامح يشمل أيضاً تليين الخطاب وتليين الجانب للآخر بما هو أرفق بهم وبحالهم كما جاء في الحديث: "إنَّ الرِّفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه"[٥٠]، و"من يُحرم الرفق يُحرم الخير"[٥١].

٣- تسامح النبي ﷺ مع غير المسلمين: لا شك في أن تسامح النبي عليه الصلاة والسلام مع غيره وخاصة غير المسلم كان واقعا ملموسا وسنة فعلية منقولة عنه بالسند الصحيح. ومن هذه السنة الفعلية تشكَّلت " قواعد وضوابط مهمة في تحديد ماهية التَّسَامح وأثره المجتمعي.. وتؤكد الحاجة اليوم إلى مثل هذه المبادئ والقيم لمعالجة عديد من القضايا التي تواجه المسلمين، وتجد حلاً لها في قيمة التَّسامح كما بيّنه القرآن والسنة النبوية القولية والفعلية"[٥٢]. ونذكر على سبيل المثال موقفه ﷺ من أعدائه من كفار قريش بعد ما منّ الله عليه بالنصر والتمكين يوم فتح مكة. فبعد أن تحقَّق النصرُ العظيم والفتح المبين، صلَّى رسولُ الله ﷺ في البيت، ثم دار وكبَّر في نواحيه، ثم خرج من البيت، وقريش قد ملأت المسجد صفوفًا ينتظرون ماذا يصنَع، فقال لهم ﷺ: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدَق وعْده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألاَ كل مأثُرة أو مال أو دم فهو تحت قدميَّ هاتَين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوةَ الجاهلية وتعظُّمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣]، ثم قال: "يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟"، قالوا: خيرًا، أخ كريم، وابن اخ كريم. قال: "فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء"[٥٣].

إن هذا الموقف الذي وقفه الرسول ﷺ مع من أساؤوا إليه، واتهموه بالكذب وسَخِروا منه، وقاموا بإيذائه قولاً وفعلاً حتى أخرَجوه من بلده المحرَّم الآمن مهاجرًا في سبيل أداء رسالته ونشْر هداها، وآذوا أصحابه وأخرَجوهم من

(٤٣) تفسير الطبري، سورة الزمر، آية ٥٣ (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٢٠ هـ)، ٣٠٦/٢١.

(٤٤) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، تحقيق: محمد المعتصم بالله (دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٧، ٢٠٠٣م)، ٢/ ١٥٦. وينظر: عبد الكريم محمد بناني، "التسامح في الإسلام، ضرورته المجتمعية والدولية وآثاره"، مؤتمر مجمع الفقه الإسلامي الدولي، الدورة الرابعة والعشرون، ١٩٩٠م، ص ٣٢-٣٣.

(٤٥) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب (السهولة والسماحة في الشراء والبيع ومن طلب حقا فليطلبه في عفاف)، ٣/ ٥٣ ح ٢٠٧٦.

(٤٦) ينظر فتح الباري شرح صحيح البخاري: كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع (دار السلام، الرياض، ١٤٢١هـ)، ٣٨٨/٤ ح ٢٠٧٦، وينظر: أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ)، ١٩٧٠/٥.

(٤٧) هو شيخ الإسلام وأمير المؤمنين في الحديث، حافظ العصر: شهاب الدين أبو الفضل، أحمد بن علي بن محمد الكناني الشافعي المصري المولد والمنشأ والدار والوفاة، الحافظ الإمام المعروف بابن حجر العسقلاني. وقد زادت مؤلفاته على مائة وخمسين مصنفًا، ومن أشهرها: فتح الباري شرح صحيح البخاري، وتهذيب التهذيب، والإصابة في تمييز الصحابة. ينظر: شمس الدين السخاوي، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (دار ابن حزم، بيروت، ١٤٠٩هـ).

(٤٨) ينظر: أحمد بن محمد القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت)، ٣٥/٥.

(٤٩) محمد بن عيسى الترمذي، الجامع الكبير (سنن الترمذي)، أبواب صفة القيامة: باب كان صلى الله عليه وسلم في محنة أهله (طبعة المكتبة الإسلامية، استانبول)، ٧/ ١٨٤، ح ٢٤٩٠، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٥٠) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، ٢٠٠٣/٤.

(٥١) المرجع السابق، ٤/ ٢٠٠٣.

(٥٢) عبد الكريم بناني، "التسامح في الإسلام"، ص ٣٩.

(٥٣) سيرة ابن هشام، ٤/ ١٠٧٨.

ديارهم وأموالهم وعشائرهم، لَيُعَدُّ من مواقف العفو الكريم، والصفح الجميل، لم يَعرِف مثله التاريخ الإنساني، ولا عرف مثله في التسامح والنبل والإحسان ومكارم الأخلاق[٥٤].

وسيرة النبي ﷺ مليئة بمواقف التسامح واللين مع غير المسلمين كالنصارى واليهود مع دعوتهم للإسلام من غير إكراه أو إجبار أو اعتداء. فتعامل معهم تعاملا طيبا على أساس الإنسانية والاحترام، فكان يعود مريضهم ويطعم جائعهم، وتعامل معهم في البيع والشراء حتى توفي ودرعه مرهونة عند يهودي،[٥٥] وسمح لوفد نصارى نجران بالصلاة في مسجده[٥٦]. وسار على هذا النهج النهج النبوي الكريم من بعده صحابته الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، واستمرت أجيال هذه الأمة ورواد حضارتها من بعده على هذا العمل العظيم من التسامح والرقي في الأخلاق وحسن المعاملة مع الغير.

وفي الإجمال، هذا هو مفهوم التسامح في الإسلام بمعظم تنوعاته اللغوية ودلائله السلوكية المتأصلة في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية. وجاءت الوثيقة المكية استبصاراً بالهدي القرآني والنبوي؛ لتعزيز القيم الدينية والإنسانية والتي من أهمها: التسامح والتعامل الحسن. فلقد عدّت التسامح - ومن خلال بنودها - قيمة اجتماعية وإنسانية كبيرة.

**المطلب الثاني، المضمون الاجتماعي:**

تدعم الوثيقة المكية قيماً اجتماعية عليا، مثل: التكافل والتراحم والتعاون، وكلها تخدم مفاهيم العيش المشترك، ويعتبر التعايش أو العيش المشترك نتيجة طبيعية للتسامح وقيمه. والوثيقة لا تكتفي بتعزيز المفهوم الطبيعي من العيش المشترك بل رفعته إلى مستوى أعلى؛ حيث نصت على "تحقيق معادلة العيش المشترك الآمن بين جميع المكونات الدينية والإثنية والثقافية على اتساع الدائرة الإنسانية"[٥٧]، فوصفه بالآمن يُعدُّ "خطوة متقدمة في ضبط آليات هذا العيش المشترك وتدبيره، من خلال عدم الاكتفاء بالمستوى المشترك لهذا التعايش الإنساني، وإنما إضافة صفة الأمان على هذا المفهوم، وهي صفة قرآنية وردت في كتاب الله عز وجل في سياقات السلم والطمأنينة والسكينة"[٥٨].

وتأتي كلمة تعايش على وزن تفاعل وجاءت من (العيش والمعايشة) ووردت على عدة معان، منها: الحياة، والعيش بوئام والاشتراك في تدبير شؤون الحياة دون ضرر. وتدل مادة (عيش) في المعجم على وجود علاقة متبادلة بين طرفين، ولأن التعايش هو تفاعلٌ بين طرفين وأكثر، فهو يعني استعداداً من جميع الأطراف لتطوير عيشٍ مشتركٍ يسوده الحوار والتفاهم[٥٩].

ودائما ما يوصف التعايش من ناحية اجتماعية في الوقت الراهن بـ"السلمي" تأكيدا للطبيعة المتوخاة من التعايش بين الأفراد أو المجتمعات المختلفة التي توجد في بيئة واحدة، وقد غدا مصطلح "التعايش السلمي / peaceful co-existence" في العصر الحديث بارزا ومتداولا بوصفه مفهومًا مستقلًا في عدة مجالات: كالمجال الاجتماعي والاقتصادي، وانتقل المصطلح لاحقاً إلى المجال السياسي في ظل "الدولة الحديثة القائمة على أساس التنوع الديني أو الإثني، وما ينتج عنه من صراعات ونزاعات، ثم صار الآن مطلباً دولياً في ظل الصراعات العالمية والدولية"[٦٠]. ورُسِّخَ شعارًا سياسيًّا في المنظمات الدولية كهيئة الأمم المتحدة، كبديل للعلاقات العدائية بين الدول التي تقر نظاماً اجتماعية مختلفة، واستُخدم كذلك في ساحة العلاقات الاجتماعية بين أتباع الديانات المختلفة، وخصوصا أولئك المقيمين في دولة واحدة[٦١].

وفي القاموس الإسلامي يمكن ربط مفهوم التعايش باستقامة المعاملة مع المخالفين الموادعين وإكرامهم، وتأدية الحقوق إليهم[٦٢]، أو "الاتفاق والقبول والتصالح الأخلاقي بين الناس في تعاملهم ومعاملاتهم حيثما وجدوا في نفس الزمان والمكان. أي أن تعيش مع الآخرين بقبول وسلم سواء أكانوا مخالفين لك أم موافقين، دون أن يتعرض أحدهما لآخر..."[٦٣].

ويحيل مفهوم التعايش كما رأينا في المستوى الأول إلى معاني الاشتراك في العيش والألفة والمودة من ناحية اللغة، وفي المستوى الثاني هو مطمح لا غنى عنه، تهتم به الأدبيات السياسية والاجتماعية وتقصد به خَلْقَ جوٍ من التفاهم بين الشعوب والدول، بعيداً عن أفكار الحرب والعنف، وذلك وفق

(٥٤) محمد صادق عرجون، محمد رسول الله، منهج ورسالة (دار القلم، دمشق، ٢٠٠٩م)، ٣٣٨/٤.

(٥٥) حديث صحيح أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرهن، باب من رهن درعه، ١٤٢/٣، ح ٢٥٠٩.

(٥٦) سيرة ابن هشام، ٥٧٤/١.

(٥٧) وثيقة مكة، بند: ٢١.

(٥٨) أحمد سعيد أباه، "وثيقة مكة المكرمة: مضامين متعددة الأبعاد"، قراءات في وثيقة مكة المكرمة، ص٣٦.

(٥٩) ينظر: المعجم الوسيط، ٦٤٦/٢، والمنجد مادة "عيش" ص٥٤٠، وكذلك موسوعة التعايش والتعارف في الإسلام، ص ١٣.

(٦٠) عبد العزيز العوضي، "القواعد الكبرى للتعايش السلمي من خلال القواعد الكلية"، في أعمال ندوة تطور العلوم الفقهية: فقه رؤية العالم والعيش المشترك، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية - سلطنة عمان، (٢٠١٣م): ص ٦٣٥.

(٦١) للمزيد عن انتقال مصطلح التعايش السلمي إلى معجم الدراسات الحديثة والعلاقات الدولية. ينظر: الموسوعة العربية العالمية (مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٩٩٩م)، ٦/ ٥٩٣.

(٦٢) موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، ٢٠٠١م)، ص ١٤٤.

(٦٣) محاسن حسن الفضل عبد الله، " التعايش في القرآن الكريم دراسة تأصيلية"، بحث مقدم إلى المؤتمر القرآني الدولي السنوي (مقدس٧)، بمركز البحوث بجامعة ملايا بماليزيا، ٢٠١٧م، ص ٤.

نظم ثقافية واجتماعية وقانونية متنوعة، مع احتفاظ كلٍّ بطابعه الخاص ،وعدم تدخل دولة في أخرى[٦٤].

لا يتعارض الإسلام في مبادئه السامية مع هذه المفاهيم العامة للعيش بين المجتمعات الإنسانية على مبدأ الأمن والاحترام بدون اعتداء أو تجنٍ على الآخر. فقد شددت الوثيقة على محاربة كل ما يعكر صفو العيش الكريم والسلم المجتمعي من تبني التطرف والعنصرية وأفكار عدائية أو تحريضية أو دعوات تبث الكراهية: سواء بين المسلمين أنفسهم أو بين المسلمين وغيرهم. وحرصت الوثيقة على حماية جيل الشباب المسلم من ذلك كله مركزة على تنمية ركائز خمسة لهويته وتقويتها: "الدين، والوطن، والثقافة، والتاريخ، واللغة، وحمايتها من محاولات الإقصاء أو الذوبان المتعمد وغير المتعمد، وحماية الشباب من أفكار الصدام الحضاري والتعبئة السلبية ضد المخالف، والتطرف الفكري بتشدده أو عنفه أو إرهابه"[٦٥].

إن الوثيقة المكية وهي تتخذ الاتجاه السابق تنحى منحىً معارضا لفكر التشدد والغلو الذي نجده عند بعض الطوائف والجماعات المتطرفة المنتسبة للإسلام، وكذلك الجماعات العنصرية المتطرفة من القوميات والجماعات غير الإسلامية. لأن هذه الجماعات تحمل أفكاراً وأيديولوجيات تبعدها عن جو الانفتاح والتعدد وتصحيح المفاهيم فضلا عن معارضته للحوار بين أتباع الأديان والثقافات.

إن مفهوم التعايش السلمي كما أعلنته الوثيقة[٦٦] ينبني على عدة حقائق قرآنية من أبرزها:

١- البشر على اختلاف مكوناتهم ينتمون إلى أصل واحد، وهم متساوون في إنسانيتهم، قال الله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: ١][٦٧].

٢- أن التكريم الإلهي في قوله تعالى:﴿۞وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠]، يشمل جميع البشر بلا استثناء.

٣- الاختلاف بين الأمم في معتقداتهم وثقافاتهم وطبائعهم وطرائق تفكيرهم قدر إلهي قضت به حكمة الله البالغة، قال تعالى﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨﴾ [هود: ١١٨].

إذن فالبشرية كلها تشترك في العبودية لله[٦٨]، والبنوة لآدم فهي بذلك أسرة واحدة كما في الحديث الشريف: "يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي ولا أحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى"[٦٩]. ومن هذه الحقائق الكونية القرآنية تنبع أهم مبادئ التعايش في الإسلام والتي يمكن إيجازها فيما يلي:

١- الإنسان مستقل في شخصيته ومعيشته، ومستقل كذلك في عقيدته؛ فلا يجبَر أو يُكرَه على تركها للدخول في الإسلام مع جواز الدعوة إليه بالحسنى، وألا يضار بسبب عقيدة يؤمن بها، فلديه الحرية والاختيار في الدين ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف: ٢٩]. فقد أطلق الإسلام "للفكر العنان ليبحث ويتدبر، ثم ألقى المسؤولية على عاتقه في اختيار معتقده، وليس لأحد أن يحمله على ترك معتقده"[٧٠]، كما قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾ البقرة: ٢٥٦].[٧١]

٢- حق المساواة في الإنسانية، وحق العيش للجميع دون تمييز بسبب دين أو لون أو عرق، فلا فوارق طبقية، ولا عرقية، ولا عصبية، ولا مفاضلة بين الغني والفقير في الإسلام.

(٦٤) Leon Lipson, "Peaceful Coexistence", 29 Law and Contemporary Problems, pp. 871-881

(٦٥) الوثيقة، البند ٢٧.

(٦٦) ينظر مثلا: البندان ١ و٣ من الوثيقة.

(٦٧) وفي الحديث الصحيح: "... إن النبي صلى الله عليه وسلم مرت به جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: أليست نفسا؟"، صحيح مسلم (دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ط١، ١٣٧٤هـ)، ٥٨/٣.

(٦٨) العبودية نوعان: عامة وخاصة، والخلق كلهم يشتركون في العبودية العامة، يقول ابن القيم: " فالعبودية العامة: عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فهذه عبودية القهر والملك، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ [مريم:٩٣]. وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة واتباع الأوامر، قال تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨ ﴾ [الزخرف:٦٨]، وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾ [الزمر:١٧، ١٨... فالخلق كلهم عبيد ربوبيته، وأهل طاعته وولايته هم عبيد ألوهيته" ". مدارج السالكين، (١٠٥/١).

(٢) حديث صحيح (أورده الألباني في السلسلة الصحيحة ح ٣٧٠٠)، وهو مروي في مسند الإمام أحمد، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٥م)، ٤١١/٥.

(٧٠) السيد أحمد المخزنجي، العدل والتسامح الإسلامي (رابطة العالم الإسلامي، إدارة الصحافة والنشر، مكة المكرمة، ١٩٨٧)، ص: ٢٤-٢٥.

(٧١) لحرية الاعتقاد أو الحرية الدينية في الإسلام ضوابط شرعية في مسألة التعايش مع الآخرين، مثل: أهمية ثبات القيم والمعتقدات وعدم الذوبان في العقائد الأخرى، أو التعرض لأصول العقيدة الإسلامية، أو لشعائر الإسلام كالصلاة والصوم والحج، أو تعطيل أصل الولاء والبراء، أو الدعوة للأديان المحرفة في بلاد التوحيد.

٣- الاختلاف البشري في العقائد والثقافة والتفكير سنة كونية يلزم الإقرار بها و"التعامل معها بمنطق العقل والحكمة بما يوصل إلى الوئام والسلام الإنساني خير من مكابرتها ومصادمتها... وعلى كل من هُدي إلى الحق بيانه للناس"[٧٢].

٤- أن عدل الله هو لجميع عباده: مسلمين وغير مسلمين، وتحقيق العدالة أمر رباني لا ينبغي للمسلم إسقاطه أو إغفاله في التعامل مع المسلمين أو غيرهم حتى في أحلك الظروف، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨]. ويلزم الوفاء مع الجميع بالعهود والاتفاقيات والمعاهدات المبرمة وتنفيذها، مما بدر من المخالف من عدم الوفاء والإنصاف[٧٣].

٥- حسن المعاملة مع غير المسلمين والنهي عن أذاهم وظلمهم، وخاصة من يعيش في وسط المجتمع الإسلامي بسلام. يقول النبي صلى الله عليه وسلم "مَن قتل مُعاهدًا لم يرح رائحة الجنة..."[٧٤]، ويقول "من قتل رجلاً من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة..."[٧٥].

٦- الحوار وسيلة للتعايش بالحسنى؛ حيث التنوع والاختلاف، فقد حض الإسلام عليه ورسم آدابه، فالحوار منهج قرآني أصيل، وسنة نبوية كريمة، قال تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت: ٤٦]، والسنة النبوية مليئة بنماذج الحوار والجدال بالحسنى بين النبي ﷺ وبين مخالفيه مستنيرا في ذلك بقوله تعالى: : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥][٧٦].

٧- التعايش بين الأديان والشرائع الأخرى بناء على البيان القرآني: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فقد أوجب القرآن الإيمان بجميع الرسل، وعدَّ التفرقة بينهم حراما، وكما أكد أن الذي أنزل على موسى وعيسى عليهما السلام نور وهدى للناس، يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ﴾ [المائدة: ٤٤]، فالإسلام دين يعترف بالشرائع الأخرى، وأن نبي الإسلام محمدا ﷺ قد آمن بصحيح ما أنزل على موسى وعيسى عليهما السلام[٧٧]. وهذا فيه تأكيدُ أن التعايش بين الأديان والشرائع الأخرى مبنيٌ على الاحترام والعدل والبِرّ والحوار البناء - كما ورد في النصوص المذكورة فيما سبق من مبادئ، مع إيضاح رسالة الإسلام السامية لجميع أتباع الأديان الأخرى، وذلك بلا اعتداء أو إكراه، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩].

٨- تأصيل العلاقات الإنسانية في الإسلام عبر السلم المجتمعي والسلام والأمن الدولي، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وقوله تعالى: ﴿۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال: ٦١]. وهذا التوجيه القرآني للمؤمنين فيه نشدانٌ

(٧٢) الوثيقة، بند ٣.

(٧٣) ينظر: رقية طه، فقه الحوار مع المخالف في ضوء السنة النبوية، جائزة الأمير نايف بن عبد العزيز آل سعود العالمية للسنة النبوية والدراسات الإسلامية المعاصرة، ٢٠٠٥م)، ص ٩٨-١١٨. وينظر: عبد القادر الشيخلي، الحوار بين أتباع الأديان والثقافات (مكتب الهامي كاتب الشمري، الرياض، ٢٠١٣)، ص ٧١-٧٢.

(٧٤) صحيح البخاري، كتاب الديات، ٩/ ١٢، حديث رقم ٦٩١٥.

(٧٥) مسند الإمام أحمد، ٣٢ /٢١٢، حديث رقم ٢٣١٢٢. وقد صحح الحديث الإمام الألباني في كتاب صحيح الترغيب والترهيب (مكتبة المعارف: الرياض، ١٤٢١)، ٣١٩/٢.

(٧٦) ومن ذلك استقبال رسول صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم عندما كان نصرانيا فقد أحسن استقباله وأجلسه على فراشه، وجلس نبينا عليه الصلاة والسلام على الأرض، ويروي ابن هشام عن عدي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "إيه يا عدي بن حاتم ألم تكن ركوسياً؟" قال: قلت "بلى"، قال: «فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك». قال: قلت: أجل، والله. وقال: وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يُجهل. ينظر: سيرة ابن هشام، ٤/ ٢٠٥.

(٧٧) أكرم ضياء العمري، المجتمع المدني في عهد النبوة: خصائصه وتنظيماته الأولى (المجلس العلمي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ٢٠٠٨م)، ص ٧.

للسلام الداخلي والخارجي، وسعيٌ إلى الاستقرار داخل الأمة الإسلامية، وإلى الاستقرار في علاقاتها مع الأمم الأخرى.

**المطلب الثالث، التسامح والتعايش في الحضارة الإسلامية:**

تُعدُّ قيم التسامح والتعايش الإسلامية من المبادئ العظيمة التي انطلقت عبرها مسيرة الحضارة الإسلامية، وانفتحت من خلالها على الحضارات والثقافات الأخرى بشكل مدهش، جعلت شعوباً كثيرة تدخل في حمى الإسلام في مدة وجيزة من الزمن. فلقد تميزت هذه الحضارة بعظيم السماحة وجميل المعاشرة ومراعاةٍ لحقوق الغير وحفظٍ للكرامة الإنسانية، والتاريخ خير شاهد وأصدقه على التعايش السلمي بين أمة الإسلام والأمم الأخرى، يقول غوستاف لوبون عن الحكم الإسلامي في الشام في العهد الأموي:

"وكان العدل بين الرعية دستورَ العرب السياسي، فقد ترك العرب الناس أحرارًا في أمور دينهم، وأظلَّ العربُ أساقفة الروم ومطارنة اللاتين بحمايتهم؛ فنال هؤلاء ما لم يعرفوه سابقًا من الدَّعة والطُّمأنينة، وبلغت الصناعة والزراعة درجةً رفيعة في سورية، وازدهرت بسرعةٍ كبرياتُ المدن السورية كالقدس وصور وصيدا ودمشق"[٧٨].

وما ينبغي تأكيده هنا هو أن التسامح والتعايش جزءان أصيلان من كليات الشريعة الإسلامية التي يعتمد عليها التطور والإسهام في مجالات العلم والحياة. وبهذه التنظيمات الفقهية سبقت الشريعة الإسلامية الدساتير العالمية الحديثة والمعاصرة في ضمان حقوق الإنسان والأقليات العرقية والدينية المختلفة. ولا غرو في ذلك فمن خصائص الحضارة الإسلامية أنها "...عالمية الأفق والرسالة، فالقرآن الكريم أعلن وحدة النوع الإنساني رغم تنوع أعراقه ومنابته ومواطنه في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣]"[٧٩].

والوثيقة تمثل دستوراً تاريخياً لإرساء قيم التعايش المشترك المبني على التفاهم والتسالم والانسجام والتناغم بين المكونات المختلفة في أي مجتمع، وذلك من خلال تأكيد أن "التنوع الديني والثقافي في المجتمعات الإنسانية لا يبرر الصراع والصدام، بل يستدعي إقامة شراكة حضارية (إيجابية)، وتواصلاً فاعلاً يجعل من التنوع جسراً للحوار والتفاهم والتعاون لمصلحة الجميع، ويحفز على التنافس في خدمة الإنسان وإسعاده، والبحث عن المشتركات الجامعة، واستثمارها في بناء دولة المواطنة الشاملة، المبنية على القيم والعدل والحريات المشروعة، وتبادل الاحترام، ومحبة الخير للجميع"[٨٠].

وتبني الوثيقة بهذه المعاني السامية، ، في خطاب موجَّهٍ للعالم معالمَ التسامح والسلام، وروافد التعايش بين البشر على قيم الاحترام وإرساء العدالة والحريات المنضبطة وفعل الخير للصالح العام. وذلك في مناكفة أكيدة لكل ما يعيق توطين السلم المجتمعي والعيش المشترك، ولكل ما يؤدي إلى خلق الفرقة والاحتراب والتعصب، مؤكدةً بأنه لا سبيل لتجنب ذلك إلا بالحوار البناء والتعاون وقصد الخير للإنسانية جمعاء. وهذا ما تتفق الوثيقة وإياه مع الخطوط العريضة في الفكر العالمي الراهن وقيم المجتمع الدولي من حيث أهمية التعايش السلمي بين الدول والشعوب مع بعضها البعض وضرورة ذلك، بناء على مفاهيم مشتركة وقضايا إنسانية جوهرية، تجعل أي مجتمع بكل أطيافه وتعدداته وتنوعاته واختلاف لغاته يعيش بسلام وأمان[٨١].

**المبحث الثالث**

المفاهيم المتداولة في الفكر العالمي

المطلب الأول، التسامح مفهوم وتاريخ:

سنعرض في هذا المطلب تاريخ مفهوم "التسامح Tolerance" في الفكر العالمي والذي نشأ في الغرب، وغدا متأصلاً ودارجاً في الفلسفات الحديثة والثقافات المتعددة بشكل عام، ويليه ذكر شيء من النقد لبعض جوانب هذا المفهوم الغربي من خلال الرؤية الإسلامية، وذكر نقاط الاشتراك معه والاختلاف من منظور الوثيقة المكية.

يشير الفيلسوف الفرنسي أندريه لالاند[٨٢] (ت. ١٨٧٦) إلى أن لفظة التسامح نشأت في القرن السادس عشر من الحروب الدينية بين الكاثوليك[٨٣] والبروتستانت[٨٤] التي انتهت بأن

(٧٨) غوستاف لوبون، حضارة العرب (دار القلم للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٢٠م)، ص ١٦٦.

(٧٩) خالد فائق العبيدي، القرآن منهل العلوم (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧١م)، ص ٥١.

(٨٠) الوثيقة، البند ٤.

(٨١)ينظر: فرانسوا شاتليه، أيديولوجيات الحرب والسلم، ترجمة جوزيف عبد الله (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨١م)، ص ٥. وينظر: وثيقة الاتحاد البرلماني الدولي رقم (٣١) الدورة ١١٦ لجمعية الاتحاد البرلماني الدولي حول (كفالة الاحترام لجميع الطوائف والمعتقدات الدينية والتعايش السلمي بينها)، ٢٠٠٧م.

(٨٢) فيلسوف فرنسي صار أستاذاً مساعداً في سنة ١٩٠٩ في الفلسفة بجامعة السوربون، وأستاذ كرسي عام ١٩١٨، ثم عمل أستاذاً بالجامعة المصرية، ومن أشهر أعماله: نظريات في الاستقراء والتجريب، والمعجم التقني والنقدي للفلسفة. ينظر مقدمة كتاب موسوعة لالاند الفلسفية، منشورات عويدات، بيروت – باريس، ٢٠٠١.

(٨٣) هم أتباع الكنيسة الكاثوليكية التي تقر بسيادة البابا وهو أسقف روما ويُعد وفقاً للعقائد الكاثوليكية خليفة القديس (بطرس) وله سلطة إدارية وتعليمية على الكنيسة الكاثوليكية، وهو أيضاً رأس دولة الفاتيكان التي تُعد المركز الروحي للكاثوليكية. وتعتبر الكاثوليكية أكبر وأقدم المذاهب الدينية النصرانية، ينظر: كاثوليكية/https://ar.wikipedia.org/wiki

(٨٤) فرقة من النصرانية احتجوا على الكنيسة الغربية باسم الإنجيل والعقل، وتسمى كنيستهم بالبروتستانتية، وتسمى بالإنجيلية أيضاً حيث يتبعون الإنجيل دون سواه، ويعتقدون أن لكل قادر الحق في فهمه، فالكل متساوون ومسؤولون أمامه. والبروتستانتية

تساهَلَ الكاثوليك مع البروتستانت وبالعكس، ثم صار التسامح يرتحى تجاه جميع الديانات وكل المعتقدات، وفي آخر المطاف شمل التسامح الفكر الحر[٨٥].

ويعرفه أدمون غوبلو[٨٦] (ت. ١٩٣٥) بأنه عدم التخلي عن المعتقدات الخاصة أو الامتناع عن إظهارها والدفاع عنها أو نشرها، بل هو الامتناع عن جميع الوسائل العنفية أو المهينة أو المؤلمة، التسامح هو اقتراح الآراء أو عرضها دون السعي إلى فرضها على الآخرين[٨٧].

بينما يرى ألبير ميمي[٨٨] (ت. ٢٠٢٠) أن المحك الحقيقي للتسامح هو كيفية تدبير الاختلاف في مجتمع التعددية، -وكما يدعوه مايكل والتزر بمجتمعات الهجرة- تعينت ترجمة التسامح في مقولات الاعتراف بالغير وفي الاحترام المتبادل وقيم الغيرية والتعايش.[٨٩]

إن عصر ما يسمى بالأنوار، المزهو بانتصار العقل والمدافع بكل قوة عن حرية الإنسان ضد كل الضرورات الثقافية والطبيعية، داخَله الإحساس بضرورة التجديد، والخروج مما يعيق الانطلاق نحو ما يبتغيه العقل ويتغياه[٩٠]. لقد وقف أغلب مفكري الغرب وفلاسفته ضد أشكال التعصب الديني والفكري؛ سعيا لصالح الإنسان الأوربي الذي كان بحاجة إلى من يجعله على دراية تامة بمجرى الأحداث السياسية والمجتمعية، غير المستقرة حينها، وتُدرج محاولة جون لوك (ت. ١٧٠٤)[٩١] في هذا الإطار من خلال كتابه "رسائل في التسامح" الذي ناقش فيه خطورة الاضطهاد الديني. وإن كان لوك نفسه رفض التسامح مع بعض الطوائف كما هو واضح في رسالته[٩٢].

وكذلك نجد الفيلسوف الشهير فولتير(ت. ١٧٧٨)[٩٣] يدعو إلى الركون إلى ما يقدمه العقل البشري، والتخلص من سلطة الكنيسة وتصرفاتها غير المعقولة، والانتباه لما يشكل الصالح العام لا ما يخدم المصالح الأنانية الضيقة؛ لذا فالتسامح عام وضروري عنده حتى لقب بفيلسوف التسامح في الغرب[٩٤]. وبما أن الاضطهاد والتعصب الديني والرجعية كانت المظاهر الطاغية في بلاده في تلك الفترة، فقد دفعه ذلك إلى كتابة رسالة في التسامح عام ١٧٢٣م والذي أثر بها في الفكر الأوروبي وأوضح فيها أن التسامح خاصية إنسانية تتميز بالضرورة، وفي هذا ابتعاد عن العنف والإقصاء، وأن يكون الإنسان دائما مستعدًا لتقبل الآخر[٩٥].

ويولد التسامح في الفكر الغربي من رحم التعصب، حيث تبرز الحاجة إليه في أوقات العنف والحرب التي تقطر دما، وعندها يصبح التسامح على قيد الحياة، وتغدو الحاجة ماسة إلى تسامح الحرية والضمير. إن التسامح لم يتسبب قط في إثارة الفتن والحروب الأهلية، لكن عدم التسامح نشر المذابح على وجه الأرض[٩٦].

أما الفيلسوف الاقتصادي جون ستيوارت مل (ت. ١٨٦٠)[٩٧] الذي دافع عن الحرية الفردية بوصفها الحامية لفعل التسامح والمنتجة له، ورفض كل أشكال القهر على الفرد، وجعل فعل التسامح ينطوي على نوعين وأعطى للفرد الحرية بفعلها، الأول غير الأخلاقي: حيث يشعر الفرد بعواطف الكره والظلم، والثاني الأخلاقي: الذي ينتج عن تغاضي الفرد وسماحه بالخطأ؛ من أجل بث التسامح وإشاعته، وكلما كثر هذا النمط ضمن الفرد قبول الأفكار[٩٨].

---

هي أحد مذاهب وأشكال الإيمان في النصرانية، وتعود أصول المذهب إلى الحركة الإصلاحية التي قامت في القرن السادس عشر والتي كان هدفها إصلاح الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا الغربية. ينظر: بروتستانتيةhttps://ar.wikipedia.org/wiki

(٨٥) أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية (منشورات عويدات، بيروت، ٢٠٠١م، المجلد١، ط٢)، ص ١٤٦٠.

(٨٦) فيلسوف ومنطقي فرنسي، حلل الفكر الرياضي وطبق هندسة إقليدس على العلوم التجريبية، ومن أهم أعماله الألفاظ الفلسفية، والعدالة والحرية، وعلم المنطق. ينظر: https://fr.wikipedia.org/wiki/Edmond_Goblot

(٨٧) عبد الرحمن بدوي، ملحق موسوعة الفلسفة (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٢م)، ص ٥٨.

(٨٨) باحث في علم الاجتماع وروائي وكاتب تونسي فرنسي، تركزت أبحاثه في علم الاجتماع على تفكيك الاستعمار في منتصف خمسينيات القرن الماضي، وعلى مناهضة العنصرية. ينظر: البير ميمي https://ar.wikiquote.org/wiki/

(٨٩) محمد سبيلا، ونوح الهرموزي، موسوعة المفاهيم الأساسية في العلوم الإنسانية والفلسفية (منشورات المتوسط، المغرب، ط١، ٢٠١٧م)، ص١١٣. ومايكل والتزر منظّر سياسي أمريكي بارز ومفكر عام، وعمل بعدة جامعات مثل هارفارد وكامبردج، ينظر: - https://ar.wikichali.com/564634-michael-walzer-HZBEPR

(٩٠) أحمد عبد الله الصعيدي، "ضرورة وحدود التسامح"، مجلة واسط، منشورات كلية الآداب جامعة صنعاء، اليمن، ص ٢٢٥.

(٩١) فيلسوف إنجليزي، كان متأثرا بتعاليم ديكارت وتضمنت أبحاثه الفلسفية مواضيع عدة مثل: الدين، والاقتصاد والتربية. ينظر: وليام كيلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص ١٤٢-١٤٣.

(٩٢) جون لوك، رسالة في التسامح (المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ١٩٩٧)، ينظر: المقدمة وص ٢٨-٤٠.

(٩٣) كاتب وفيلسوف فرنسي اسمه الحقيقي هو فرانسوا ماري ويُعرف بفولتير (١٦٩٤–١٧٧٨) عاش خلال عصر التنوير الأوروبي، كان يدعو دائما إلى الإصلاح الاجتماعي ويدافع عن الحريات المدنية والمساواة ضد تسلط الكنيسة الكاثوليكية ونظام المؤسسات الاجتماعية في عصره. ينظر: فولتير https://ar.wikipedia.org/wiki/

(٩٤) وليام كيلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، ترجمة، إمام عبد الفتاح إمام (دار التنوير، بيروت، ط١، ٢٠١٠م)، ص ٢٣٤.

(٩٥) فولتير، مقولة في التسامح، ترجمة سعيد بنكراد (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠١٥م).

(٩٦) عمر بن سليمان، "مفهوم التسامح في الفكر الغربي المعاصر"، منشورات كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران ٢، ص ٦٩-٧٠.

(٩٧) فيلسوف إنجليزي، تأثر بتعاليم هيوم وأوجست كمت، كتب في المنطق وفي الاقتصاد السياسي وفي الحرية وفي مذهب المنفعة. ينظر: وليام كيلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص ١٤٣.

(٩٨) ينظر الفصل الثاني من: جون ستيوارت مل، حول الحرية (الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م). ويعدُّ هذا الكتاب أحد المراجع الرئيسة للبيرالية السياسية في أوروبا.

وهكذا نرى أن تطور الفلسفة الغربية في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادي وبخاصة ما سمي بفلسفة التنوير، أسهم في ظهور مصطلح التَّسَامح، إلى أن أصبح ثقافة في الفكر الأوروبي، حتى دخل حيز القانون الدولي، حيث نصّ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في المادة (١٨) على أن: "لكل شخص الحق في حرية التفكير والضمير والدين" وفي المادة (٢٦): "أن التربية يجب أن تهدف إلى... تنمية التفاهم والتسامح والصداقة بين جميع الشعوب والجماعات العنصرية أو الدينية"[٩٩]، وتتعزز فكرة التسامح أكثر في المواثيق الدولية عن طريق قبول الآخر بدلاً من ضد الآخر وتمكينه من التمتع بحقوقه الإنسانية والقانونية كافةً، كما صرحت به وثيقة المؤتمر العام لليونسكو عام ١٩٩٥، وذلك في تعريف التسامح بأنه:

الاحترام والقبول والتقدير للتنوّع الثري لثقافات عالمنا ولأشكال التعبير وللصفات الإنسانية لدينا، ويتعزَّز هذا التَّسَامح بالمعرفة والانفتاح والاتصال وحرية الفكر والضمير، وأنه الوئام في سياق الاختلاف، وهو ليس واجبا أخلاقيا فحسب، وإنما هو واجب سياسي وقانوني أيضا، والتسامح هو الفضيلة التي تيسِّر قيام السلام، ويسهم في إحلال ثقافة السلام محل ثقافة الحرب[١٠٠].

ولا حدود لحرية الفرد في غالب المجتمعات الغربية إلا إذا أضرت بالآخرين، وإن التسامح يعود إلى ضغط العادات والتقاليد، وإلى القانون غير المكتوب، وبهذا يُنقل المفهوم من دائرة الدين والسياسة إلى مجال الأخلاق والسلوك وإلى الحرية الفردية[١٠١].

هذه أهم الأفكار والمبادئ التي نشأ من خلالها مفهوم التسامح في الفكر والفلسفات الغربية، والتي لا شك في أنها أسهمت في الحفاظ على أرواح كثير من البشر في أوروبا، وفي ارتقاء الأنظمة الاجتماعية فيها، بعد الكبت والبطش اللذين مارستهما الكنيسة ونظامها السياسي في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

وفي العموم فإن هذه المعاني والمفاهيم والدلالات للتسامح في الفكر الغربي والذي اقتبسه واعتمده الفكر العالمي والقانون الدولي، والتي تؤسس للحريات وأن يحاول المرء التعامل مع الآخر بروح سلمية، وألا يمنع أحد غيره من حقوقه الطبيعية لا تتعارض ووجهة نظر الوثيقة المكية. بل تتفق معها إجمالا من خلال طرح وثيقة الحريات الشخصية أو الفردية التي أصبحت من أبرز المواضيع المتداولة عالميا، وحرية الفكر والمعتقد وذلك "وفق مبدأ الاستحقاق المتبادل، والحقوق العادلة مع الجميع، ومن بينهم الأقليات الدينية والإثنية"[١٠٢]، مع اشتراط الإقرار بوجوب تأطير هذه الحريات بحزمة من الضوابط القانونية والدستورية والأخلاقية لتنسجم مع القيم الإنسانية المشتركة والمنظومات الاجتماعية التي تَطلّبَ بناؤها والتوافق بشأنها مئات السنين، ولا تتسبب في تدميرها[١٠٣]. ويتجلى ذلك في البند السابع عشر من الوثيقة:

الحرية الشخصية لا تسوغ الاعتداء على القيم الإنسانية، ولا تدمير المنظومات الاجتماعية، وثمة فرق بين الحرية والفوضى، وكل حرية يجب أن تقف عند حد القيم، وحريات الآخرين، وعند حدود الدستور والنظام، مراعية الوجدان العام، وسكينته المجتمعية.

ويمكن أن نلاحظ مما سبق حول هذا المفهوم ونشأته في الغرب الآتي:

١- لقد نشأ مفهوم التسامح وتجلى معناه في الفكر الغربي والأعراف الدولية بعد حصول النزاعات والصراعات الطائفية والدينية في أوروبا، وبسبب اضطهاد الكنيسة وقهرها لغير النصارى أو لبعض طوائف النصارى، واعتماد أفكار عنصرية تقوم على الإقصاء لعدة قرون. وهذا ما لم يكن في الدين الإسلامي الذي تأصلت في تعاليمه منذ نزول الوحي قيم التسامح: فكراً وسلوكاً كما رأينا في المبحث السابق، وفي أثناء الحديث عن الوثيقة النبوية.

٢- بالرغم مما حققته الفلسفات المعاصرة والاتجاهات الفكرية في الغرب من تقدم في مجال العلاقات الإنسانية وفي التسامح الديني والاجتماعي، فإن حدود مفهوم التسامح لديهم فلسفيا وقانونيا لا حد له، فهو يدخل في كل شيء، وتطبيقاته غير منضبطة. ويؤدي هذا إلى فوضى وتزعزع لقيم جوهرية أخرى بسبب القبول بمفاهيم التسامح بلا حدود، مثل اختلال القيم الدينية العليا التي تتعلق بالأسرة وتربية النشء واحترام الوالدين ورعايتهما عند الكبر؛ لأن في هذا الاختلال تهديد للنوع البشري وللفطرة السليمة[١٠٤].

(٩٩) ينظر إلى ميثاق الأمم المتحدة في موقعها الإلكتروني: https://www.un.org/ar/about-us/un-charter/preamble، وقد نصت الديباجة على: "أننا نحن شعوب الأمم المتحدة وقد آلينا على أنفسنا أن ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب التي في خلال =جيل واحد جلبت على الإنسانية مرتين أحزاناً يعجز عنها الوصف... وفي سبيل هذه الغايات اعتزمنا أن نأخذ أنفسنا بالتسامح، وأن نعيش معاً في سلام وحسن جوار".

(١٠٠) ينظر موقع اليونسكو الإلكتروني: https://ar.unesco.org/commemorations/toleranceday

(١٠١) محمد بن أحمد مفتي، "نقد التسامح الليبرالي"، مجلة البيان، العدد ١٢٨، ص٢٧.

(١٠٢) وثيقة مكة، البند ٢٢.

(١٠٣) عبد الإله بن عرفة، "وثيقة مكة المكرمة"، ص ١٩.

(١٠٤) هناك عدد من المؤسسات الدينية غير الإسلامية تتشارك مع نظيراتها الإسلامية في تبني القيم الأخلاقية فيما يخص بناء العلاقات الأسرية والتربوية على الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، كمؤسسة الفاتيكان. ينظر أيضاً: علي أسعد وطفه، "التربية على قيم التسامح"، مجلة التسامح، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، العدد ١١، سلطنة عمان، ٢٠٠٥م، ص ٢١٢- ٢٣٧.

وهذا ما بينته الوثيقة بجلاء في بندها السابع عشر- المذكور أعلاه.

٣- يحاول الفكر العالمي المعاصر ربط التسامح بعصر الأنوار في أوروبا، أو بالديانة النصرانية التي سبقت الإسلام بقرون كما هو ظاهر في توظيف فولتير لذلك[١٠٥] في تجاهل تام للفكر الإسلامي الذي مارس التَّسَامح في صوره المختلفة: دينيا وسياسيا واجتماعيا واقتصاديا. وهذا ما عرفته أخلاط من الأجناس والمعتقدات التي عاشت بسلام في المجتمعات الإسلامية في ظل الحضارة العربية الإسلامية. ولم يكن "مرد النهضة التي نفتخر بها في تاريخنا الإسلامي إلى الدين كعقيدة فحسب، بل يعود إلى ما وفّره هذا الدين من التَّسَامح وحرية الفكر والمعتقد في عيش مشترك؛ مما أتاح نقل العلوم والمعارف عن اليونان والهند وغيرهما دون أي حرج؛ لتكون الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى هي قمة الحضارة الإنسانية التي كان الأوروبيون إليها يرنون ويتعلمون لغتها وينقلون تراثها"[١٠٦].

٤- أن التسامح ليس مفهوما غريبا خالصا أو أنه غربي النشأة والتطوير كما يدعي بعض المفكرين الغربيين أو العرب[١٠٧]. فليس غياب مفردة التسامح معجمياً أو في التراث الإسلامي هو غياب للمفهوم والدلالة، فالتسامح في الإسلام -كما رأينا- ذو قيمة عالية مخصوصة ومرغوبة وله مفهوم ثابت وأصيل.

**المطلب الثاني، ظاهرة الإسلاموفوبيا:**

يرى الملاحظ في الوقت الراهن أن خطاب التشدد الفكري يتراجع لصالح خطاب آخر همه التعايش والسلام مع الآخرين، شعوبا وديانات، همه ألا تظل التصورات المغلوطة عن الإسلام منتشرة هنا وهناك. وهذا الخطاب السلمي التي تتبناه الوثيقة يُبرز للعالم أنه لا مبرر للخوف من الإسلام دينًا، ولا خوف من المسلمين بوصفهم أمة من الأمم تريد التمتع بحقوقها التي منحت لها بموجب المواثيق الدولية، ولكي يكون التصور واضحا يجب إظهار الإسلام على حقيقته السمحة النقية التي تعايشت مع مختلف الديانات الأخرى منذ فجر الرسالة.

ومن هذا المنطلق أشارت الوثيقة إلى ظاهرة الخوف من الإسلام أو ما يسمى بـ "الإسلاموفوبيا" في بعض الدول غير المسلمة وخاصة في الغرب وأسبابها، وإلى ضرورة مكافحتها دولياً، وإظهار حقيقة الإسلام، وذلك في البند الخامس عشر:

ظاهرة (الإسلاموفوبيا) وليدة عدم المعرفة بحقيقة الإسلام وإبداعه الحضاري وغاياته السامية، والتعرف الحقيقي على الإسلام يستدعي الرؤية الموضوعية التي تتخلص من الأفكار المسبقة، لتفهمه بتدبر أصوله ومبادئه، لا بالتشبث بشذوذات يرتكبها المنتحلون لاسمه، ومجازفات ينسبونها زوراً إلى شرائعه.

والإسلاموفوبيا (Islamophobia) التي هي نقيضة لأسس التعايش والتسامح، مصطلح مكونٌ من كلمتين "إسلام" أي الدين الإسلامي، و"فوبيا /phobia" وهو مصطلح لاتيني مشهور في علم النفس ويعني خوفًا شديدًا وغير مبرر وغير عقلاني ومتواصل من مواقف ونشاطات صادرة عن الآخرين[١٠٨]. ويُقصد بالإسلاموفوبيا الرهاب أو الهلع من الإسلام بشكل عام، أو " رفض الإسلام كديانة، وكطريقة حياة، وكمشروع تعتمده مجموعة أو طائفة من السكان، وكمشروع ثقافي أيضا، كما نُظر إليه على أنه خوفٌ يمنع التواصل، والتبادل، والحوار مع المسلمين..."[١٠٩].

ومن ناحية تاريخ ظهور الإسلاموفوبيا فإنه يعود إلى عهد الأنثربولوجيا[١١٠] الاستعمارية الفرنسية في بداية القرن العشرين في إطار استشراف السياسة الأكثر جدوى في التعامل مع مسلمي إفريقيا. فقد ذكر آلان كليان في السياسة المسلمة في إفريقيا الغربية الخوف من الإسلام لدى الغرب المسيحي: "لبعض المسيحيين والأوروبيين، المُسلم هو العدوّ الطبيعي، العدوّ غير القابل للتقاش والمساومة. أن تكون مسلماً، بالنسبة إليهم، هو أن تُنفي الحضارة، وأن تكون تابعاً لدين محمّد لا يعني شيئاً سوى الوحشية والقساوة والنية السيئة"[١١١].

(١٠٥) بناني، "التسامح في الإسلام"، ص ٥٨.

(١٠٦) خليل صالح، "ثقافة التسامح والتعايش مع الآخر"، ص ٧٦، بحث منشور بموقع abuosba.net.

(١٠٧) مثل ما فعل المفكر اللبناني سمير الخليل في مقالته "التسامح في اللغة العربية" في الكتاب الذي شاركه في كتابته عدد من المفكرين البريطانيين مثل كارل بوبر وبيتر نيكولسون بعنوان "التسامح بين شرق وغرب.. دراسات في التعايش وقبول الآخر" وترجمه إبراهيم العريس، حيث تجنى الكاتب وزعم غياب التسامح في الثقافة الإسلامية والعربية كلمة وممارسة، وإنما يعود الفضل لإدراج ثقافة التسامح في الفكر العالمي إلى الغرب. وذهب نفس المذهب محمد أركون في كتابه (من فيصل التفرقة إلى فصل المقال... أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟) وعلي أومليل في كتابه (في شرعية الاختلاف).

(١٠٨) Oxford English Dictionary, Official site, link: https://en.oxforddictionaries.com/definition/-phobia accessed 1/3/2017

(١٠٩) فائز صالح محمود اللهيبي، إشكالية الخوف من الإسلام (Islamophobia) بين الرؤية الغربية والواقع الإسلامي، (دار النهج للدراسات للنشر والتوزيع، حلب، ٢٠٠٩)، ص ٧.

(١١٠) الأنثربولوجيا هي "علم الإنسان / علم الإناسة" ، ويقوم هذا العلم بدراسة كل ما يخص الإنسان من أعمال فكرية ومادية، كما يدرس الأشكال الأولى للإنسان ومراحل تطوره البنائي بكل الحقب الزمنية وكل الحضارات الانسانية. ينظر: محمد الجوهري وعلياء شكري، مقدمة في دراسة الأنثربولوجيا (القاهرة، ٢٠٠٧)، https://books-library.net/free-356485209-download

(١١١) منقول من: https://www.trtarabi.com › explainers ، وهو مترجم من كتاب آلان كليان بالفرنسية:
"La Politique musulmane dans l'Afrique occidentale française"

وفي السنة ذاتها استخدمه موريس دالافوس لكن في معرض الدفاع عن مسلمي إفريقيا جنوب الصحراء واعتبر "الحالة الروحية لهؤلاء لا تتعارض مع الحضارة الأوربية نهائيا... ليس هناك شيء تخاف منه فرنسا، ليس هناك سبب كي تكون هناك إسلاموفوبيا من ساكنة هذه الرقعة من العالم"(١١٢).

إن وجهة النظر المعتدلة هذه ترد بالعرض في بعض الدراسات، لكن ليست هي السائدة فالخوف من الإسلام يعكس العداء الكنسي له في العصور الوسطى المعروفة بالتنقيص والقدح والتحريض، حتى عصر التنوير المستند إلى العقل والداعي إلى تحكيمه، تؤثر بعض الأوصاف والأعمال المغرضة والتي ترسخ الطابع العدائي والمدمر في المخيال الغربي، ولا ينجو الاستشراق من حيث اهتمامه بالغير لأجل السيطرة والإخضاع وتعميق المعلومات اللازمة لذلك.

وحتى لا نقف عند البحث التاريخي وحده، فإنه من اللازم النظر إلى الراهن حيث تبدو الظاهرة مقلقة جراء تحرك إمكانات إعلامية وسياسية لتثبيتها في مخيال الشعوب التي تضم جاليات من المهاجرين المسلمين ممن يرفض الاندماج في المجتمعات المحتضنة ويحتفظ بتقاليده ومظاهره الدينية (المسجد، الحجاب، البرقع).

إن جدية الخوف والعداء دعت منظمة التعاون الإسلامي إلى رصد هذه التطورات خلال الفترة من مايو ٢٠١٤م إلى إبريل ٢٠١٥م بشأن الإسلاموفوبيا ورأت أن "الإسلاموفوبيا توفر مجالا خصبا لتجدد مظاهر الاعتداء الجسدي والنفسي على الأقليات المسلمة؛ مما يمهد الطريق نحو زعزعة النظام العام والسلم والاستقرار الدولي"(١١٣). وأن التمثلات السلبية أو الحط من الأشخاص بسبب ديانتهم لا يزال مظهرا معاصرا من مظاهر الكراهية الدينية والتمييز والعنصرية، والذي لا يهم الأفراد فقط بل معتقداتهم عن طريق إعطاء صورة سلبية لأتباع تلك الديانات، وهو ما يؤدي إلى تنامي التحريض على الكراهية والتمييز والتعصب والعنف مما يعتبر مسًّا بحقوق الإنسان(١١٤).

ولا تقدم وثيقة مكة أرقاما أو تقديرات لانتشار الظاهرة ولكنها تشدد على انفصال تصرفات أتباع الديانات، عن الديانات نفسها، وترجح كذلك فهما وسطيا للدين الإسلامي، مستعينة بما أوردته من أنّ الكلمة الفصل هي للعلماء أنفسهم، فيما بالمسلمين وصلاتهم بالآخر.

وحذرت من أن ظاهرة الإسلاموفوبيا كما ورد في البند أعلاه هي وليدة عدم المعرفة بحقيقة الإسلام وإبداعه الحضاري وغاياته السامية. وقررت أن هذه الظاهرة على ضربين، الأول عرضي نابع عن عدم المعرفة بالإسلام وحضارته، وإصلاحه يكمن في زيادة العلم بالإسلام وإسهاماته الحضارية في تطوير البشرية، والثاني مرضي عالق في النفوس؛ نتيجة لما تحويه من اختلالات وأدواء وكراهية وهذا يحتاج إلى معالجة عميقة(١١٥).

وهذه الظاهرة المقيتة في نظر الوثيقة والتي نشرت الكراهية والعنصرية ضد المسلمين بل شرّعت حتى قتلهم في بعض مناطق العالم كما حصل في ميانمار، هي نتاج لتأجيج الصراع وترويج لأطروحة صدام الحضارات واستنبات للعداء بين الأمم والشعوب، وذلك "يحول دون تحقيق مطلب العيش المشترك، والاندماج الوطني الإيجابي، وبخاصة في دول التنوع الديني والإثني، كما أنه في عداد المواد الأولية لصناعة العنف والإرهاب"(١١٦).

مقاربة الإسلاموفوبيا من هذه الناحية تستدعي وقف التأليب والشحن العاطفي ضد المسلمين في وسائل الإعلام التقليدية والاجتماعية. وهذا بدوره يتطلب شرحا مفصلا لدور المسجد وحقوق المرأة والشباب. إضافة إلى تفصيل الواجبات الدينية للفهم في البيئات المخالفة، وهذا يستدعي محاورةً واستقاءً من الفكر العالمي لبيان شمولية المطلب الديني وإنسانيته وتسامحه، إنه دخول المسلمين على خط الاعتراف والأخلاقيات المعاصرة بما فيها من دعوة للمسؤولية والحوار.

**المطلب الثالث، الاعتراف بالآخر:**

تحيل الخلفية الفلسفية لمفاهيم التسامح والتعايش إلى إشكال رئيس في الفكر الحديث والمعاصر هو إشكال الاعتراف بالآخر وبالتنوع والاختلاف، الذي شهد عودة وظهورا في العقود الأخيرة، سواء من حيث قوله بانتصار نظام معين على أنظمة أخرى، أو من حيث معارضة الاعتراف أصلا بكل أشكال الحيف والظلم التي تقع على الفرد والجماعة، وهذا الثقل النظري للإشكال تكمن دوافعه في التعدد الثقافي وانفجار الهويات الفرعية في مناطق عديدة من العالم.

إذا كان الحوار وسيلة مهمة لترسيخ مبدأ التسامح والتعايش فركيزته الأولى هي "الاعتراف بحتمية وجود الاختلاف بمعنى التنوع في الحياة الإنسانية المطلقة، الأمر الذي يترتب عليه مبدأ الاعتراف بوجود الآخر وأحقيته بالوجود"(١١٧).

ضمن هذا المجهود الساعي إلى اكتناه التعدد شكلا ومحتوى تدخل وثيقة مكة المكرمة، في وقت تتعرض فيه كل الأديان لأشكال متعددة من سوء الفهم وعدم ضبط تصرفات الأتباع، والخوف

(١١٢) https://www.trtarabi.com › explainers الإسلاموفوبياكي.
(١١٣) التقرير الثامن لمرصد منظمة العالم الإسلامي بشأن ظاهرة الإسلاموفوبيا مايو ٢٠١٤م – إبريل ٢٠١٥م، مطبوعات الإيسسكو، ٢٠١٥م، ص ٦.
(١١٤) المرجع السابق.
(١١٥) عبد الإله بن عرفة، "وثيقة مكة المكرمة: رؤية جديدة من الهدي الإسلامي"، ص ١٨.
(١١٦) الوثيقة، بند ١٤.
(١١٧) رقية طه، "فقه الحوار مع المخالف في ضوء السنة النبوية"، ص٥٥.

المتبادل من الآخرين، ومشكلات المهاجرين واللاجئين، والأقليات والسكان الأصليين وغيرها.

والواقع أنه حينما تتعدد المرجعيات المعرفية وتتباين التصورات الثقافية، وتختلف المواقع السياسية والعملية تتأكد الحاجة إلى الحوار الإيجابي الذي لا يستهدف بالدرجة الأولى إقناع كل طرف بقناعات الآخر، وإنما يستهدف الفهم والتفاهم وخلق مساحة مشتركة للتعاون والتواصل الإنساني والعيش المشترك(١١٨).

أمام هذه المعضلات التي تعترض سبيل الإنسان تُقدم الوثيقة بتفاؤل وأمل للنفوس، القيم الأخلاقية والإيمانية، التي تقطع الطريق على السائرين في دروب الصراع العرقي، ورافعي راية القوميات والعصبيات والتطرف والغلو(١١٩).

فلا يبقى إلا التعايش المشترك بين المجتمعات المختلفة، في الثقافة والدين وفق مبادئ الاعتدال والتسامح، وفي هذه الناحية تزخر الأدبيات العربية الإسلامية بأمثلة كثيرة على ذلك. لكن وثيقة مكة المكرمة تبرز طموحا كبيراً ومثالياً حيث إنها من خلال ما أعلنته من مبادئ وقيم فهي ذات رؤية مستنيرة موصولة بمكاشفة الذات ومصارحتها، ثم إعادة البناء من جديد، بمعنى "أنها تسعى أول الأمر إلى تفاهم وجداني وإيماني بين العالم الإسلامي وبعضه البعض، وسعيا للسير على دروب الوئام، وتاليا تفتح الأبواب واسعة أمام التلاحم بين العالم الإسلامي وشعوب الكون قاطبة"(١٢٠).

هنا يمكننا التساؤل عن طبيعة هذه التعددية في علاقتنا بالآخر، أي تعددية تقصدها الوثيقة؟ هل هي من نمط التفاهم الحاصل بين المتحاورين في مواضيع بالذات أم أنها سعي لتقريب الهوة بين أتباع الديانات والثقافات الأخرى وهو لفظ ذو صبغة أنثروبولوجية يشمل ملل وثقافات العالم تقريبا؟

من ناحية أولى تنشغل الوثيقة بالتحديات الراهنة أمام الإسلام كالخوف منه، وكراهيته، إنها تهتم أولا بإصلاح فهم الآخر لنا واستقامته، وهذا وضع معرفي وأخلاقي عام. ويلزم معه مواجهة الخطر المنسوب إلى الإسلام زورا وبهتانا من عدد من الأطراف المعادية للإسلام، وضرورة مكافحة ظاهرة الإسلاموفوبيا، وجذور الكراهية الموجهة للإسلام والمسلمين والتي تصدر من معلومات مغلوطة أحادية المصدر تحتاج دراسة و علاجا في إطار الحكمة والتعقل والحوار والموعظة الحسنة(١٢١).

ولا شك في أن إرادة العيش المشترك والتخلق بالتسامح وانتهاج قيمه، ذات دور مهم في إزالة الفهم المشوه وتصحيحه، والاعتبارات المغلوطة التي تكونت لدى كل طرف عن الآخر، مثل القول إن الإسلام هو دين عنف وقتل، أو إزالة الترسبات التاريخية التي خلفتها حقب الصراع والنزاع الطويلة كالحروب الصليبية وغيرها.

وانطلاقا من فهم خاص للتعددية والاختلاف رأى بعضهم "أن التعددية في الشرائع والملل، وفي الأقوام والشعوب وعند القبائل وفي الحضارات هي سنة من سنن الله التي لا تبديل فيها ولا تحويل، وإذا كانت التعددية فريضة إلهية وحكمة ربانية، وإذا كان التعايش سلوكا اجتماعيا راقيا، ولا مفر منه فلا بد من الحوار بين الفرقاء المتعايشين والمتنافرين والمختلفين"(١٢٢).

والحوار البناء كأساس للتعايش يفيد معنى الرجوع ومراجعة القول بين اثنين أو أكثر، وبين استعمال الحجة والدليل عند المتحاورين للوصول إلى الإقناع أو التفاهم والاعتراف(١٢٣). والقرآن الكريم منهج حياة نزل لهداية البشر، فلا غرابة أن يكون كتاب حوار مفتوح، ذا أبعاد متعددة، وآفاق واسعة، لقد قام حواره على المعلومات والمفاهيم، ومناقشة قضايا عقدية وتشريعية وأخلاقية مع أصناف من خلق الله تعالى: مؤمنين ومشركين ومنافقين وأهل كتاب وغيرهم؛ مبينا أدواته المنهجية وكيفية إجرائه(١٢٤).

إن وثيقة مكة من خلال نظرة فاحصة هي خطاب إلى العالم بقدر ماهي معنية بوضع داخلي له نواقصه، إنها تدخل في الصراع حول الاعتراف ولكن بطبيعة دولية، فالوسطية والتسامح والتعايش كلها موجهة نحو الاعتراف. ولسان حالها وهي تتحدث بشأن المسلمين أن على الآخرين منحنا التقدير والاعتراف.

**الخاتمة**

وختاماً، يمكن إبراز أهم نتائج البحث والتوصيات في النقاط التالية:

١- تعدُّ وثيقة مكة المكرمة المبرمة في رحاب البيت الحرام عام ١٤٤٠هـ امتدادً لجهود المملكة في مجال نشر قيم الحوار والتسامح والوسطية والاعتدال وترسيخها في العالم.

٢- إن جملة المفاهيم والمضامين الواردة في الوثيقة المكية جاءت لتتم مكارم الأخلاق الواردة في المواثيق الدولية والفكر العالمي في قضايا التسامح والعيش المشترك وتضبطها بالمعايير الربانية.

(١١٨) محمد محفوظ، "حوار الأديان من اللاهوتي إلى الثقافي"، مجلة الكلمة، العدد ٥١، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، لبنان، ٢٠٠٦م، ص٩١.

(١١٩) محمد الغاري، "وثيقة مكة المكرمة: دستور تاريخي لإرساء قيم التعايش وتحقيق السلم والوئام"، قراءات في وثيقة مكة المكرمة، ص ٣٠.

(١٢٠) المرجع السابق، ص ٣٢، وينظر أيضاً ديباجة الوثيقة.

(١٢١) المرجع السابق، وينظر أيضا البند ١٥ من الوثيقة.

(١٢٢) أحمد الطيب، "منهج القرآن في الحوار مع الآخر"، حولية مركز البحوث والدراسات، العدد ٤٠، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة ص ٧٢٨. وهذا ما تضمنته الوثيقة في البند الرابع كما سبق شرحه في المبحث الثالث.

(١٢٣) أسماء خليفة الشبول، "حوار الأديان في الإسلام وتطبيقاته المعاصرة"، مجلة كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر - الدقهلية، المجلد ٢٠، العدد ٢، ٢٠١٨م، ص ٧٥٩.

(١٢٤) عباس الجراري، الحوار من منظور إسلامي (المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة "إيسيسكو"، المغرب، ٢٠٠٠م)، ص ٢٧.

٣- إن مصدر الأخلاق والقيم الإسلامية هو الوحي، وهي بذلك تكتسب عنصر الثبات والديمومة وهي تصلح لكل البشرية على اختلاف مشاربهم، وليست مستندة على الأخلاق النظرية المستندة فيه على جهد العقل البشري المحدود، أو الأعراف والتقاليد التي تتغير بتغير الزمان والمكان والتطور الفكري.

٤- لا تجعل وثيقة مكة المكرمة -بحكم انبثاقها من الشريعة الإسلامية- التسامح والعيش المشترك الآمن والاعتراف بالآخر خيارا ظرفيا تمليه بعض الظروف التي يتغير بتغيرها، ولكن تجعل منه خياراً إنسانياً واستراتيجيا دائماً، ومرتبطا بماهية الإنسان وفطرته؛ لأن الخيارات الظرفية لا تُشعر الإنسان بالأمان الذي نشأت من أجله المواثيق والمنظمات.

**التوصيات:**

يوصي الباحث بأن يقوم المتخصصون في الدراسات الإسلامية والشرعية بمشاريع بحثية ومؤتمرات علمية وجلسات حوارية حول وثيقة مكة المكرمة وما تضمنته من مبادئ إسلامية كبرى ومثل عليا؛ لجمع المسلمين باختلاف أطيافهم عليها، وذلك لتحقيق الآتي:

١- شرح الأرضية التي انطلقت منها الوثيقة، المتمثلة في مرجعيتها الدينية، وكيف خاطبت من خلالها المسلمين والعالم بلغة عالمية ورسالة كونية وأفكار حضارية كبرى، تتلاقى فيه مع الفكر الإنساني السليم سواء أكان غربيا أم شرقيا في تكوين مجتمعات بشرية آمنة ومطمئنة، يسودها الود والوئام، والتصالح والتعايش والتسامح؛ لتحقيق القيمة القرآنية الكبرى في خلق البشر مختلفين "لتعارفوا" من أجل بناء الأرض وعمارتها بالخير والعدل.

٢- إبراز جهود المملكة في نشر قيم التسامح والتعايش السلمي والحوار البناء على المستويات: المحلي والإقليمي والدولي، وما هذه الوثيقة المكية إلا ثمرة من ثمار هذه الجهود المباركة.

**والحمد لله رب العالمين**

## المراجع :

المراجع العربية:

١. ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٩٠م.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٩م.

٣. أرتاليم، منتهى، قضايا التعايش بين المسلمين وغيرهم، دراسة فقهية تأصيلية في ضوء مقاصد الشريعة، مجلة التجديد، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، مجلد ٢١، العدد ٤١.

٤. الأزدي، تفسير أبي الحسن مقاتل بن سليمان الأزدي، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣.

٥. الأصفهاني، الراغب، المفردات في غريب القرآن، دار المعرفة، بيروت، د ت.

٦. بدوي، عبد الرحمن، ملحق موسوعة الفلسفة ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٢م.

٧. ابن حميد، صالح بن عبد الله، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، ط ٤، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، ١٤٣٠هـ.

٨. ابن حنبل، مسند الإمام أحمد، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٥م، م٥.

٩. ابن سليمان، عمر، مفهوم التسامح في الفكر الغربي المعاصر، منشورات كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، ٢.

١٠. ابن عاشور، محمد الطاهر، مقاصد الشريعة الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ٢٠٠٤م.

١١. ابن عرفة، عبد الإله، وثيقة مكة المكرمة: رؤية جديدة من الهدي الإسلامي، قراءات في وثيقة مكة المكرمة، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، ٢٠١٩م.

١٢. بناني، عبد الكريم محمد، التسامح في الإسلام، ضرورته المجتمعية والدولية وآثاره، مؤتمر مجمع الفقه الإسلامي الدولي، الدورة الرابعة والعشرين، ١٩٩٠م.

١٣. بوراوي، عادل، نظرات تربوية في وثيقة مكة، قراءات في وثيقة مكة المكرمة، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، ٢٠١٩م.

١٤. الترمذي، محمد بن عيسى، الجامع الكبير، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.

١٥. التقرير الثامن لمرصد منظمة العالم الإسلامي بشأن ظاهرة الإسلاموفوبيا مايو ٢٠١٤م – أبريل ٢٠١٥م، مطبوعات الإيسسكو، ٢٠١٦م.

١٦. الجراري، عباس، الحوار من منظور إسلامي، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، المغرب، ٢٠٠٠م.

١٧. الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، ط١، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ١٩٨٣م.

١٨. الجوزية، ابن قيم، مدارج السالكين، تحقيق: محمد المعتصم بالله، ط٧، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٣م.

١٩. حميد الله، محمد، مجموعة الوثائق في العهد النبوي والخلافة الراشدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٤١م.

٢٠. رايت، وليام كيلي، تاريخ الفلسفة الحديثة، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.

٢١. سبيلا، محمد، ونوح الهرموزي، موسوعة المفاهيم الأساسية في العلوم الإنسانية والفلسفية، منشورات المتوسط، المغرب، ط١، ٢٠١٧م.

٢٢. السخاوي، شمس الدين، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٠٩هـ.

٢٣. سعد، عبد الواسع محمد غالب الغشيمي وأمير فاضل، التسامح الإسلامي قراءة في معطياته الفكرية وآثاره الواقعية، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد ٢١ فبراير ٢٠١٣م.

٢٤. سعيد أباه، أحمد، وثيقة مكة المكرمة: مضامين متعددة الأبعاد، في قراءات في وثيقة مكة المكرمة، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو(، ٢٠١٩م.

٢٥. شاتليه، فرانسوا، إيديولوجيات الحرب والسلم، ترجمة جوزيف عبد الله، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨١م.

٢٦. الشبول، أسماء خليفة، "حوار الأديان في الإسلام وتطبيقاته المعاصرة"، مجلة كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر، الدقهلية، المجلد ٢٠، العدد ٢، ٢٠١٨م.

٢٧. الشعيبي، أحمد قائد، وثيقة المدينة: المضمون والدلالة سلسلة كتاب الأمة تصدرها وزارة الأوقاف القطرية، العدد ١١٠، السنة ٢٥، ٢٠٠٦م.

٢٨. صالح، خليل، ثقافة التسامح والتعايش مع الآخر، بحث منشور بموقع .abuosba.net

٢٩. الصعيدي، أحمد عبد الله، ضرورة وحدود التسامح، مجلة واسط، منشورات كلية الآداب جامعة صنعاء، اليمن.

٣٠. صفي الدين، بلال، "مفهوم التسامح في الإسلام وصلته بمفهوم الواجب"، مؤتمر التسامح الإسلامي في الشريعة الإسلامية، ٢٠٠٩م، دمشق.

٣١. الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ..

٣٢. طه، رقية، فقه الحوار مع المخالف في ضوء السنة النبوية، جائزة الأمير نايف بن عبد العزيز آل سعود العالمية للسنة النبوية والدراسات الإسلامية المعاصرة، ٢٠٠٥م.

٣٣. الطيب، أحمد، "منهج القرآن في الحوار مع الآخر"، حولية مركز البحوث والدراسات، العدد ٤٠، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.

٣٤. عبد الله، محاسن حسن الفضل، التعايش في القرآن الكريم دراسة تأصيلية، بحث مقدم إلى المؤتمر القرآني الدولي السنوي (مقدس٧)، بمركز البحوث بجامعة ملايا بماليزيا، ٢٠١٧م.

٣٥. العبود ،صالح، فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام، دار طيبة للنشر، مكة المكرمة، ١٩٨٢.

٣٦. العبيدي، خالد فائق، القرآن منهل العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧١م.

٣٧. عرجون، محمد صادق، محمد رسول الله، منهج ورسالة، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٩م.

٣٨. العلي، صالح أحمد، الدولة في عهد الرسول، مطبعة المجمع العلمي: بغداد، ١٩٨٨م.

٣٩. العمري، أكرم ضياء، المجتمع المدني في عهد النبوة: خصائصه وتنظيماته الأولى، المجلس العلمي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ٢٠٠٨م.

٤٠. العوضي، عبد العزيز، القواعد الكبرى للتعايش السلمي من خلال القواعد الكلية، في أعمال ندوة تطور العلوم الفقهية: فقه رؤية العالم والعيش المشترك، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمان، ٢٠١٣م.

٤١. الغماري، محمد، وثيقة مكة المكرمة: دستور تاريخي لإرساء قيم التعايش وتحقيق السلم والوئام، قراءات في وثيقة مكة

المكرمة، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، ٢٠١٩م.

٤٢. الفهداوي، خالد سليمان، الفقه السياسي للوثائق النبوية، ط١، دار عمار، عمان ١٩٩٨م.

٤٣. فولتير، مقولة في التسامح، ترجمة: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠١٥م.

٤٤. القاري، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٢هـ.

٤٥. القسطلاني، أحمد بن محمد، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

٤٦. لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، منشورات عويدات، بيروت، ط٢، ٢٠٠١م.

٤٧. اللهيبي، فائز صالح محمود، إشكالية الخوف من الإسلام (Islamophobia) بين الرؤية الغربية والواقع الإسلامي، دار النهج للدراسات للنشر والتوزيع، حلب، ٢٠٠٩م.

٤٨. لوبون، غوستاف، حضارة العرب، دار القلم للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٢٠م.

٤٩. لوك، جون، رسالة في التسامح، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ١٩٩٧م.

٥٠. مبروك، محمد مختار، التعايش السلمي وفقه العيش المشترك، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، ٢٠١٤م.

٥١. محفوظ، محمد، حوار الأديان من اللاهوتي إلى الثقافي، مجلة الكلمة، العدد ٥١، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، لبنان، ٢٠٠٦م.

٥٢. المخزنجي، السيد أحمد، العدل والتسامح الإسلامي، رابطة العالم الإسلامي، إدارة الصحافة والنشر، مكة المكرمة، ١٩٨٧م.

٥٣. المطعني، عبد العظيم إبراهيم، مبادئ التعايش السلمي في الإسلام، دار الفتح للإعلام العربي، القاهرة ١٩٩٦م.

٥٤. موسوعة التعايش والتعارف في الإسلام: مفاهيم ميسرة، من إصدار منظمة التعاون الإسلامي، ٢٠٢٢م.

٥٥. الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٩٩٩م.

٥٦. موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، ٢٠٠١م.

٥٧. النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ط١، ١٣٧٤هـ.

٥٨. وطفه، علي أسعد، التربية على قيم التسامح، مجلة التسامح، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، العدد ١١، سلطنة عمان، ٢٠٠٥م.

المراجع الأجنبية:

.٥٩ Alvin and Heidi Toffler, War and Anti-War: Survival at the Dawn of the 21st Century, Little Brown & Co, New York, 1993, p 219 .

.٦٠ Leon Lipson, "Peaceful Coexistence", 29 Law and Contemporary Problems .

المواقع الإلكترونية:

.٦١ Oxford English Dictionary, Official site, link: https://en.oxforddictionaries.com/definition/-phobia accessed 1/3/2017

.٦٢ الشنبري، عبد الله،"مكانة الحضارة الإسلامية وخصائصها"، جامعة أم القرى: https://uqu.edu.sa/ahsharif/4516.

.٦٣ https://www.trtarabi.com › explainers › الإسلاموفوبيا62 -

.٦٤ https://ar.unesco.org/commemorations/toleranceday

65. https://www.trtarabi.com › explainers › "La Politique musulmane dans l'Afrique occidentale française